أدوات الطعام والشراب واستعمالاتها في القرآن الكريم

بين الحقيقة والمجاز دراسة بلاغية تحليلية

إعداد الدكتورة:

ابتســـــام محمد محمد فيـــود

أستـاذ البلاغـة والنقد المساعـد

في كلية الدراسـات الإسلامية والعربيـة

للبنات بالزقازيق

مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

ملخـــص البحث

يتطرق هذا البحث لدراسة أدوات الطعام والشراب في القرآن الكريم من الوجهة البلاغية التحليلية بين جانبي الحقيقة والمجاز، وقام البحث على جمع الآيات القرآنية التي وردت في هذا الجانب وتضمنها فهرس خاص بها في أول البحث.

وخرج البحث في ستة عشر مبحثا مرتبة على حروف الهجاء، بدأت بمبحث الآنية، وانتهت بمبحث الوعاء والأوعية.

وقام البحث على التحليل الوافي للأداة وما تضمنه سياقها فيما يتعلق بموضوع البحث من أسرار بلاغية مستفيدا من بعض التفاسير التي لها باع في تفسير القرآن الكريم اعتمادا على علوم البلاغة.

وتوصل البحث إلى أن أدوات الطعام والشراب الواردة في القرآن الكريم، سواء التي استخدمت استخداما حقيقيا، أو التي استخدمت مجازيا، لم يخل أي منها من اللطائف والنكات البلاغية التي تكشف النقاب عن بعض تأليفه الغريب، ونظمه العجيب الذي عجز أرباب الفصاحة والبلاغة عن الإتيان بمثله، مما يوجب له الإعجاز، ويبين عن أحد وجوهه، وسر من أسراره ألا وهو بلاغة النظم.

الكلمات المفتاحية: الأواني – الطعام والشراب – الاستخدام الحقيقي والمجازي – النكات البلاغية.

Literal vs. Figurative Use of Food and Beverage Utensils in the Qurʾān: an Analytical Rhetorical Study

By: Dr. Ibtisam Muhammad Muhammad Fiyoud
Assistant Professor of Rhetoric and Literary Criticism, Faculty of Arabic and Islamic Studies (for females), Zagazig University
E.MAIL: Ebtesam.fayod@azhar.edu.eg

Abstract

This research paper studies the cutlery and utensils of food and beverage mentioned in the Holy Qurʾān, from an analytical rhetorical viewpoint, distinguishing literal from figurative use. The methodology includes reviewing Qurʾānic verses on the topic, and indexing them alphabetically [in Arabic] at the beginning of the paper. The paper comprises sixteen sections listed alphabetically, starting with the chapter on utensils (starting with the Arabic letter *hamzah*: ʾa), and ending with the chapter on vessels (starting with the Arabic letter wāw: w).

The study analyzes in full detail each tool and its rhetorical context, making use of some books of exegesis that are known for their rhetorical interpretation of the Qurʾān. The research concludes that food and beverage utensils mentioned in the Qurʾān, whether in literal or figurative use, contain to some degree nuances of eloquence and shades of meaning which serve to elucidate how marvelous the Qurʾānic structure is and how nonpareil its subtle textual level is, even to the most competent masters of eloquence and rhetoric. It comes about as a miracle, revealing only one of its secrets, which is eloquence of composition.

Key words: utensils – food and beverages - literal and figurative use – eloquence of composition

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى وآله وصحبه أجمعين، وبعد.

فهذا بحث بعنوان (أدوات الطعام والشراب واستعمالاتها في القرآن الكريم بين الحقيقة والمجاز – دراسة بلاغية تحليلية)، يسعى للكشف عند أحد جوانب القيمة الفنية للتعبير القرآني، وإظهار بعض من جمالياته وأسرار نظمه، ولما عبر هنا بالحقيقة وعبر هناك بالمجاز، فكل كلمة في القرآن الكريم وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى أقوى أداء وأوفى بالغرض، وتناولته من جهة الحقيقة والمجاز؛ لأنه عن طريقهما يظهر التفنن في الأسلوب وبراعة التعبير وخصائص النظم، كما أن جدة هذا الموضوع وندرة الدراسة فيه كانت دافعا قويا لاختياره.

وقد سار البحث على المنهج التحليلي، حيث قمت بجمع الأدوات التي تستخدم في الطعام والشراب في القرآن الكريم، سواء التي تستخدم في تناولهما أو تقديمهما، أو تكون أداة يستعان بها في طبخ الطعام أو استخراج الماء ونحو ذلك، وجعلت كل أداة في مبحث خاص بها، أذكر فيه معنى الأداة لغة واستعمالا، ثم أورد نص الآية التي بها موضع الأداة، ثم معاني المفردات إن وجد ما يحتاج إلى التوضيح منها، ثم المعنى العام للآية أو الآيات بحسب ما يقتضيه السياق، ثم أقوم بالتحليل البلاغي، وقد خرج البحث في ستة عشر مبحثا، وكان بناؤه كالتالي:

- المقدمة
- التمهيد ويتضمن:

معنى الأداة

القيمة الفنية والبلاغية للتعبير بالحقيقة والتعبير بالمجاز

- فهرس الآيات
- المبحث الأول: الآنية
- المبحث الثاني: الأباريق
- المبحث الثالث: الأكواب
- المبحث الرابع: التنور
- المبحث الخامس: الجفان
- المبحث السادس: الدلو – الذنوب
- المبحث السابع: السقاية
- المبحث الثامن: السكين
- المبحث التاسع: الصحاف
- المبحث العاشر: الطبق – الطباق
- المبحث الحادي عشر: القدور
- المبحث الثاني عشر: القوارير
- المبحث الثالث عشر: الكأس
- المبحث الرابع عشر: المائدة
- المبحث الخامس عشر: الماعون

- المبحث السادس عشر: الوعاء والأوعية
- الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج التي تم التوصل إليها.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

وعلى الله قصد السبيل،،،،

د/ ابتسام محمد محمد فيود

التمهيـــد

معنى الأداة:

" قال الليث: ألف الأداة واو لأن جمعها أدوات، ولكل ذي حرفة أداة، وهي آلته التي تقيم حرفته... وأداة الحرب: سلاحها [1]، والأداة: الآلة والجمع أدوات، وتأدي: أخذ الدهر أداته"[2] و"الأداة الآلة الصغيرة."[3] وتعني ما يستعان به لإنجاز غرض من الأغراض كما في أدوات المائدة من الأطباق والآنية والملاعق وغيرها اللازمة لتناول الطعام.

ويختص البحث هنا بأدوات الطعام والشراب فحسب في القرآن الكريم، أي ما يستعان به في تناول وتقديم الطعام والشراب، وقد وردت في القرآن الكريم متعددة ومتنوعة وهي: الآنية – الأباريق – الأكواب – التنور – الجفان – الدلو – الذنوب – السقاية – السكين – الصحاف – الطبق – الطباق – القدور – القوارير – الكأس – المائدة – الماعون – الوعاء والأوعية.

القيمة الفنية والبلاغية للتعبير بالحقيقة والتعبير بالمجاز

تحدث ابن جني (ت ٣٩٢) عن الحقيقة والمجاز فقال: الحقيقة ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة، والمجاز ما كان بضد ذلك... وإنما يقع المجاز، ويُعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي: الاتساع، التوكيد، والتشبيه، فإن عدم هذه الأوصاف كانت

---

(١) اللسان: مادة أدا.

(٢) القاموس المحيط: باب الواو فصل الهمزة ٨، وينظر مختار الصحاح: مادة أدا، والمصباح المنير: مادة أدا.

(٣) المعجم: الوسيط: مادة أدا.

الحقيقة البتة."[١]

ويرى ابن رشيق (ت ٤٥٦) " أن العرب كثيرا ما تستعمل المجاز في كلامها وتعده من مفاخر الكلام ودليل الفصاحة ورأس البلاغة."[٢]

وقد قسم السكاكي (ت ٦٢٦) الكلام إلى:

١ – حقيقة وهي: الكلمة المستعملة فيما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة كاستعمال الأسد في الهيكل المخصوص.

٢ – مجاز وهو: " الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالا في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة من إرادة معناها في ذلك النوع."[٣]

ويقيد الخطيب القزويني هذا الاستعمال بأن يكون في اصطلاح به التخاطب؛ احترازا عما استعمل فيما وضع له لا في اصطلاح به التخاطب، كلفظ الصلاة يستعمله المخاطب بعرف الشرع في الدعاء مجازا، [٤] حيث إن الحقيقة تتنوع إلى لغوية وشرعية وعرفية خاصة أو عامة بحسب نسبتها إلى واضعها.

والذي يعني به البلاغيون هو الحقيقة والمجاز من جهة اللغة ومن جهة العقل، حيث يقسمون المجاز بحسب الحقيقة المتجوز فيها كما هو معلوم إلى مجاز لغوي ومجاز عقلي.

فاللغوي يتفرع عنه المجاز المرسل، والاستعارة والعقلي يكون في إسناد الجملة من طريق

(١) الخصائص: جـ ٢ / ٤٤٢.

(٢) العمدة: جـ ١ / ٢٦٧ .

(٣) مفتاح العلوم: ٤٦٧ ، ٤٦٨ .

(٤) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني: ص (٢٠٢،٢٠٣).

المعقول لا اللغة كقولهم:" فعل الربيع النور... وحق الفعل فيه أن يثبت لله تعالى ، وقد تجوز بإثباته للربيع... فالتجوز ههنا في إثبات الفعل للربيع لا في الفعل نفسه ."[1]

وعندما يرد المتكلم التعبير عما يدور في ذهنه من أفكار ومعان يريد إيصالها إلى المخاطب إما أن يسلك في كلامه طريق الحقيقة أو المجاز، فإذا أراد أن يؤثر على المتلقي ويوصل له الفكرة بشكل أوضح وبتعبير قوي موجز مال عن الحقيقة إلى المجاز، لأنه أبلغ وأقوى في التصوير من الحقيقة، وبه تظهر بلاغة الكلام وبراعته بانتقاء الألفاظ المعبرة عن المعاني المختلفة وراء ألفاظها التي تفصح عن غرض المتكلم على الوجه المطلوب.

"ومن المحال أن يكون هناك مجاز من غير حقيقة."[2] فالحقيقة هي الأصل والأساس الذي يبنى عليه المجاز، والقرآن الكريم يحتوي على الحقيقة والمجاز معا حتى ترى فيه كثرة المجاز تلبية لأهدافه السامية في تنقية النفوس وتهذيبها، والرقي بالفعل الإنساني إلى أعلى المراتب من خلال التفكير والتأمل فيما يقرأ ويسمع.

وقد تميز القرآن الكريم عن كل منظوم ومنثور بنظمه وبلاغته وانسجامه بين الحقيقة والمجاز حتى ترى فيه الصورة الحسية والعقلية، والمفردة والمركبة والظاهرة والضمنية بحسب ما يقتضيه الحال والمقام والغرض.

و" من أراد أن يتعرف جوامع الكلم ويتنبه إلى فضل الإعجاز والاختصار ويحيط ببلاغة الإيماء، ويفطن لكفاية الإيجاز فليتدبر القرآن، وليتأمل علوه على سائر الكلام."[3]

(١) أسرار البلاغة: ٣٧٨.

(٢) الطراز للعلوي :جـ ١/ ٤٥.

(٣) الإعجاز والإيجاز لأبي منصور الثعالبي: ١٠

فهـــرس الآيات

سورة البقرة

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١٨٨)

سورة المائدة

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١١٢)

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (١١٤)

سورة الأعراف

﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢٢)

سورة التوبة

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(١٩)

سورة هود

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾(٤٠)

سورة يوسف

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ

عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾(١٩)

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾(٣١)

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ (٧٠)

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾(٧٦)

سورة المؤمنون

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ (٢٧)

سورة النمل

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٤٤)

سورة سبأ

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾(١٣)

سورة الصافات

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾(٤٥)

سورة الزخرف

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٧١)

سورة الذاريات

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾(٥٩)

سورة الطور

﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾(٢٣)

سورة النجم

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾(٨)

سورة الواقعة

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾(١٨)

سورة الملك

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾(٣)

سورة نوح

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾(١٥)

سورة الإنسان

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾(٥)

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾(١٦)

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴾(١٧)

سورة النبأ

﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾(٣٤)

سورة الانشقاق

﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾(١٩)

سورة الغاشية

﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾(١٤)

سورة الشمس

﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾(١٣)

سورة الماعون

﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾(٧)

المبحـــث الأول

الآنيـــة

الآنية من أدوات الطعام المعروفة ومفردها إناء وهو" الذي يرتفق به وهو مشتق من ذلك لأنه قد بلغ أن يُعتمل بما يعاني به من طبخ أو خرز أو نجارة، والألف من آنية مبدلة من الهمزة وليست بمخففة عنها لانقلابها في التكسير واواً "(١).

وقد ورد لفظ الآنية في القرآن الكريم بالجمع في موضعين ولم يأت مفردا، أما ما ورد من قوله تعالى: "غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ" [الأحزاب:٥٣] فليس بهذا المعنى فإناه أي "وقته من أنى وآن الشيء أي قرب إناه "(٢) أي "غير منتظرين نضجه وإدراكه وبلوغه "(٣) كما في قوله تعالى: "حَمِيمٍ آَنٍ " [الرحمن :٤٤] أي بلغ إناه من شدة الحر ومثله قوله تعالى:" تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آَنِيَةٍ " [الغاشية:٥] أي "متناهية في الحرارة قد أوقدت عليها جهنم منذ خلقت فدفعوا إليها وردا عطاشا"(٤)

وعلى هذا لم يتبق إلا موضع واحد وهو المخصوص بآنية الطعام وهو قوله تعالى:

"وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآَنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ " [الإنسان:١٥]

(١) لسان العرب: مادة أنى.

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص:٩٦.

(٣) اللسان: مادة أنى.

(٤) تفسير البغوي: جـ٨ / ٤٠٨.

مفردات اللغة:

آنية: الآنية أوعية، جمع إناء والأواني جمع الجمع، قوارير: جمع قارورة، وهي ما أقر فيه الشراب ونحوه من كل إناء رقيق صاف.

المعنى العام:

لما وصف الله تعالى في الآيات السابقة طعام الأبرار ولباسهم ومسكنهم وصف في هاتين الآيتين شرابهم، وقدم عليه وصف الأواني التي يشرب بها، وذكر الطواف بها بلفظ المجهول؛ لأن المقصود ما يطاف به لا الطائفون.

التحليل البلاغي:

الآنية هنا مستعملة في معناها الحقيقي مسوقة لبيان الحال الذي سيكون عليه أهل الجنة من الطواف عليهم بآنية الطعام وأكواب الشراب.

وقد ذكرت الآنية في سياق بناء فعل الطواف للمجهول الذي لم يسم فاعله؛ لأن المقصود لفت الانتباه إلى وصف الله تعالى بأنها من الفضة، وهذا تنعم بشكلها وتلذذ بمجرد النظر إليها علاوة على فخامة ما يكون بداخلها، إذ من شأن الأوان الفخمة أن يقدم فيها طعام فخم لذا كان قوله تعالى: "وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ" بصيغة الفعل المبني للمجهول، وكذلك قوله تعالى: "وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا"[الإنسان:١٧] بخلاف الآية بعدها "وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ" [الإنسان:١٩] بصيغة الفاعل؛ لأن " القصد بالأول وصف الآنية والمشروب، والمقصود بالثاني وصف الطائف "[1].

فقدم المطاف به؛ لأنه الذي به تنعمهم تناولا واتصالا وتطعما وغذاء ومأكلا ومشربا فكان

(١) كشف المعاني في المتشابه من المثاني، لابن جماعة :جـ ١ / ٣٧٠.

أهم للتقديم، ثم أعقب بذكر الطائفتين، وهم الولدان المخلدون.(١)

كما أن " السياق الذي ورد فيه المبني للمجهول كان تعداد النعم التي يتمتع بها المؤمن في الجنة فناسب ذلك أن تذكر آنية الفضة والأكواب والقوارير التي يشربون بها؛ لأنها من جملة النعم، فإذا انتهى من تعداد ذلك كان لائقا التعقيب بذكر هؤلاء الغلمان الذين يقومون بخدمة المؤمنين ويقدمون لهم ما يقدم من ألوان هذه النعم التي ذكرت قبل؛ وإنه لمن المعقول حقا أن يتقدم تعداد النعم على من يقومون بتقديمها؛ لأن من طبيعة الأشياء ألا يكون للمرء خدم وحشم إلا إذا كان صاحب نعمة "(٢)

وإبهام ماهية صنف الآنية مع اقترانها بالأكواب فيه دلالة على احتمال أن يكون المقصود بها آنية الطعام خاصة كما أن الأكواب آنية الشراب، على نحو يفيد التفخيم للآنية والتشويق لرؤيتها وتذوق ما بها من طعام.

أي يطاف عليهم بالطعام كما يطاف عليهم بالشراب لإثبات المزيد من التلذذ والتنعم.

(١) ينظر ملاك التأويل لابن الزبير: جـ ٢/ ٩٣٥ .

(٢) سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، د/ عودة الله منيع القيسي:١٠١.

المبحث الثاني

الأباريق

الأباريق جمع إبريق وهو " إناء مثل الكوز، والعرب تشبه أباريق الخمر برقاب طير الماء يقول شبرمة الضبي:(١)

كأن أباريق الشمول عشية أوز بأعلى الطف عوج الحناجر

ويشبهونه أيضا بالظبي كقول علقمة ابن عبدة:(٢)

كأن إبريقهم ظبي على شرف مفدم بسبا الكتان ملثوم

والأباريق لها عُرى وخراطيم (٣)، سميت أباريق لبريق لونها من الصفاء (٤)، وقيل لأنها يرى باطنها كما يرى ظاهرها (٥).

ولم يرد في القرآن الكريم الأباريق مفردة بل وردت جمعا في موضع واحد، في قوله تعالى: "يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ" [الواقعة:١٧،١٨]

المعنى العام:

من ألوان النعيم التي يحظى بها أصحاب اليمين أنهم يدور عليهم غلمان وخدم على الصفة التي تسر المخدوم إذا رأى الخادم. يدورون عليهم بأكواب بديعة، لا يعوق الشارب منها عائق، وأباريق عظيمة ذات عرى وخراطيم للصب منها وكأس من خمر جارية من

---

(١) شرح ديوان الحماسة لأبي تمام تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد: جـ٣ / ٣٧.

(٢) شرح ديوان علقمة الفحل، تحقيق السيد أحمد صقر: ٦٩.

(٣) اللسان : مادة برق.

(٤) تفسير الجلالين : ٥٣٧ .

(٥) معالم التنزيل للبغوي : جـ٨ / ١٠ .

العيون.

التحليل البلاغي:

قال أبو عبيدة:" الأكواب هي الأواني المستديرة الرؤوس وليست لها خراطيم، والأباريق التي لها خراطيم.... والعرب لا تسمى الإناء كأسا حتى يكون فيه الخمر، وقوله: من معين أي خمر جارٍ."(١)

ويقال: " الكوب للماء وغيره، والإبريق لغسل الأيدي، والكأس لشرب الخمر."(٢)

وهذه الأواني كلها حقيقية، وما ارتبط بها من أحداث وأوصاف ستوجد آنذاك على الحقيقة؛ إذ أنها مسوقة في وصف الحال الذي سيكون عليه أهل الجنة بعد أن يدخلوها جزاء ما قدموا من حسن الطاعة والعمل فيما يرضي الله تعالى.

وذكرها والتعبير بها أيضا كناية عن صفة النعيم؛ لإظهار مدى التنعم الذي أعد لأصحاب اليمين؛ إذ لم يذكر النعيم صراحة في سياق الآية، وإنما ذكر لازم هذا النعيم، فهم من قبل ذا متكئون على سرر كاتكاء الملوك، " متقابلين لا ينظر بعضهم إلى أقفاء بعض، يدور حولهم للخدمة – حال الشراب وغيره – غلمان وخدم على صفة واحدة فهم دائما على الصفة التي تسر المخدوم إذا رأى الخادم، يعني أنهم مخدومون في شرابهم وطعامهم مكفيون مؤنة ما يريدون، فهم في غاية الترف والنعيم."(٣)

وهي كناية من قبيل الإيماء والإشارة؛ إذ كان إفادة النعيم هنا غير خاف، " فلم يفد الغرض من مجرد اللفظ ولكن دل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره ثم يعقل السامع من

(١) تفسير السمعاني: جـ ٥/ ٣٤٥، ٣٤٦.

(٢) حدائق الروح والريحان: جـ/ ٢٨ / ٣٥٢.

(٣) حدائق الروح والريحان: جـ/ ٢٨ / ٣٥٢.

ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا لكونه هو الغرض كمعرفتك من كثير رماد القدر أنه مضياف ومن طويل النجاد أنه طويل القامة."[1]

"فإن قيل كيف جمع الأكواب والأباريق وأفرد الكأس؟ أجيب أن ذلك عادة أهل الشرب فإنهم يعدون الخمر في أوان كثيرة ويشربون بكأس واحدة وفيها مباينتهم أهل الدنيا من حيث إنهم يطوفون بالأكواب والأباريق ولا تثقل عليهم بخلاف أهل الدنيا"[2]

وفي تنكير الأباريق وكذا الأكواب والكأس مع إفرادها، دلالة على كثرة عددها وفخامة أمرها ومغايرة ما تكون عليه من الوصف إذ ليست أباريق ولا أكواب ولا كأس معهودة كما يعلمها أهل الدنيا.

(١) دلائل الإعجاز: ٢٦٢.

(٢) السراج المنير: جـ ٤ / ١٨٨.

المبحث الثالث

الأكواب

الأكواب جمع كوب وهو الكوز الذي لا عروة له[1]، وقد جمع القرطبي الأقوال التي ذكرت في وصف الكوب فقال: " قال قتادة: الكوب المدور القصير العنق، القصير العروة، والإبريق المستطيل العنق الطويل العروة، وقال الأخفش: الأكواب الأباريق التي لا خراطيم لها ، وقال قطرب هي الأباريق التي ليست لها عرى، وقال مجاهد: إنها الآنية المدورة الأفواه، وقال السّدي هي التي لا أذان لها، وقال ابن عزيز: هي أباريق لا عرى لها ولا خراطيم واحدها كوب، ومذهب أهل اللغة أنها التي لا أذان لها ولا عرى."[2]

والأكواب من الأدوات التي تستخدم في الأشربة ولم ترد مفردة في القرآن الكريم، وإنما جاءت بصيغة الجمع في أكثر من موضع:

فالموضع الأول ورد في قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة الزخرف ٧١]

المعنى العام:

بعد أن يستقر عباد الله المؤمنون في الجنة هم وأزواجهم ويهدأ روعهم، يطاف عليهم بصحاف من ذهب مترعة بألوان الأطعمة، وبأكواب فيها أصناف الشراب مما لذّ وطاب.

التحليل البلاغي:

انتظمت الأكواب في سياق الآية مع الصحاف للكناية عن إكرام الله تعالى للذين آمنوا

(١) اللسان: مادة كوب، والصحاح للجوهري: مادة كوب

(٢) تفسير القرطبي: جـ ١٦ / ١١٤.

وكانوا مسلمين حق الإسلام وإبراز مدى إنعامه تعالى عليهم.

وهذا مفاد من قوله تعالى: "ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ" [الزخرف٧٠] أي "تكرمون إكراما يبالغ فيه، والحبرة: المبالغة فيما وصف بجميل."(١)

وعطف الأكواب دون تخصيصها بوصف يقتضي وصفها بما وصف به المعطوف عليه وهو الصحاف فحيث كانت الصحاف من ذهب فالتقدير وأكواب من ذهب، وهو من الإيجاز بالحذف، والغرض منه عدم التكرار، حيث أغنى عنه الوصف في المعطوف عليه .

والآية كلها إيجاز قصر، حيث قوله تعالى: "يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ" كناية عن المطعوم، وقوله تعالى: "وَأَكْوَابٍ" كناية عن المشروب، "ولم يذكر الأطعمة والأشربة؛ لأنه يعلم أنه لا معنى للإطافة بالصحاف والأكواب عليهم من غير أن يكون فيها شيء."(٢)على معنى " يطاف عليهم فيها بالطعام في صحاف من ذهب وبالشراب في أكواب من ذهب، فاستغنى بذكر الصحاف والأكواب عن ذكر الطعام والشراب، الذي يكون فيها لمعرفة السامعين بمعناه.(٣)" ثم إنه تعالى لما ذكر التفصيل ذكر بيانا كليا فقال: وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين أي في الجنة."(٤)

وفي هذا إطناب بذكر العام بعد الخاص أو الإجمال بعد التفصيل؛ إذ كان هذا " حصر لأنواع النعم لأنها إما مشتهاة في القلوب أو مستلذة في العيون."(٥)

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج : جـ٤/ ٤١٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : جـ١٦ / ١١١ .

(٣) جامع البيان عن تأويل القرآن للطبري: جـ٦ / ٥٣٥ .

(٤) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الدمشقي : جـ١٧/ ٢٩٠ .

(٥) البحر المحيط: جـ ٥ / ٣٧ .

ذلك أن " المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك، فإذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن، وكان شعورها به أتم ...كما في إبهامه وتفسيره تضخيم للأمر وتعظيم له. "[1]

أما الموضع الثاني الذي وردت فيه الأكواب فكان في قوله تعالى في سورة الواقعة:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨)﴾

المعنى العام:

يطوف الخدم على أهل الجنة بأداة الشراب كاملة من أكواب وأباريق وخمر تجري من العيون، فهي صافية نقية لا تنقطع أبدا، ولا صداع فيها ولا ذهاب للعقل كما في خمور الدنيا.

التحليل البلاغي:

ترى الأكواب هنا غير مخصصة بوصف ولا معطوفة على ما يقيدها بالوصف، وإنما هي أكواب على الإطلاق علاوة على عموم التنكير فيها؛ تهويلا لأمرها وتفخيما لشأنها؛ لتذهب النفس فيها كل مذهب.

وهذا الإبهام يفيد أنها أكواب تباين كل هيئة مألوفة فيها وتعلو على كل وصف معلوم عنها، ذلك أنها أعدت للمقربين من الله تعالى، وهم في أعلى الدرجات فناسب السياق هنا هذا العموم والإبهام للتفرد والتميز؛ لأن نعيم الجنة بعضه أرفع من بعض، فالنعيم الذي يتمتع به السابقون من الأنبياء والشهداء والصالحين أعلى منزلة وأرفع قدرا مما يتمتع به

(١) الإيضاح للخطيب القزويني : ١٥١ .

الذين اتبعوهم بإحسان. [1]

ولهذا اقتضى السياق الإفصاح عن فاعل الطواف بذكر الفعل للمعلوم وهو ولدان مخلدون أي "غلمان لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيرون."[2] لبيان المزيد من التنعم بوجود الخدمة والخدم، وفخامة وحسن ما يكون عليه هيئة كل منهما لتكتمل صورة التفرد والتميز عن باقي الدرجات في الجنان الأخرى؛ لإبراز أنه جزاء يستحق المسابقة مما يحث ويدفع إليها كما أشار سبحانه وتعالى في بداية الآيات "وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ."

والموضع الثالث الذي وردت فيه الأكواب في قوله تعالى في شأن الأبرار: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ، قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان ١٥،١٦]

المعنى العام:[3]

التحليل البلاغي:

ونلحظ هنا تخصيص الأكواب بالوصف والتفصيل فيه فهي على شكل القوارير وهي من فضة، وقد قدرت تقديرا، ذلك أنها وردت في سياق جزاء الأبرار وهم أولياء الله كما ذكر سبحانه وتعالى في الآية السابقة: "عينا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا" [الإنسان:٦]حيث روي" أنها نزلت في علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وذلك أنه

(١) حدائق الروح والريحان : جـ ٣١ / ٣٧٩.

(٢) معالم التنزيل للبغوي: جـ ٨ / ١٠

(٣) ينظر المعنى العام في المبحث الأول (الآنية).

عمل ليهودي بشيء من شعير فقبض الشعير فطحن ثلثه فجعلوا منه شيئا ليأكلوه فلما تم إنضاجه أتى مسكين فسأل فأخرجوا إليه الطعام ثم عمل الثلث الثاني فلما تم إنضاجه أتى يتيم فسأل فأطعموه ثم عمل الثلث الباقي فلما تم إنضاجه أتى أسير من المشركين فسأل فأطعموه ، وطووا يومهم ذلك."[1] وقد أعدت لهم جزاء على ما فعلوه في الدنيا مما أرضى الله تعالى عنهم وعدهم أولياء له، فقد كانوا يوفون بالنذر، ويطعمون الطعام على حبه أي على قلته وشهوتهم له وحاجتهم إليه، ولم ينتظروا الجزاء أو الشكر عليه خوفا من الله تعالى واتقاء شرهول يوم القيامة، فكان جزاؤهم أن وقاهم الله شر ذلك اليوم ، وألقى على وجوههم النضرة والسرور في مقابل عبوس ذلك اليوم ، فكأنه أبدله لهم سرورا، وجزاهم بما صبروا في الدنيا على فقرهم وحاجتهم وقلة طعامهم ومع ذلك كانوا يؤثرون المسكين واليتيم والأسير على أنفسهم عن طيب خاطر؛ لذا كان جزاؤهم نعيما يقابل فقرهم وحاجتهم في الدنيا ، فأعد لهم جنة سكن مقابل مساكنهم الفقيرة وأعد لهم فيها الحرير ألبسة وفرشا بدلا من فرشهم الرثيثة البالية، ومتكئين على أرائك بدلا عن خلو بيوتهم من الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا، فهي مظلة عليهم لا يصيبهم الحر ولا البرد، كما أن في هذه الجنة أشجار ذات ظلال وثمار قطوفها دانية منهم لا يصيبهم شيء من التعب في حينها بل هي مذللة لهم كأنها تأتيهم ليقطعوها لا يتعبون في الذهاب إليها، أو يأكلون من ثمارها قياما وقعودا ومضطجعين ويتناولونها كيف شاءوا على أي حال كانوا.

وهذا في مقابل افتقادهم في الدنيا حياة الترف التي يكون فيها بساتين وأشجار ذات ظلال وثمار تسر النفوس وتمتعها.

---

(١) معالم التنزيل للبغوي: جـ ٨ / ٢٩٥.

ومن مقتضيات هذا اللون من النعيم أن يخدموا ويطاف عليهم بتقديم أفخر الطعام والشراب في أوان فاخرة، فكانت الآنية من الفضة وكذلك الأكواب كانت على هيئة القوارير في صفائها وشفافيتها إلا أن القوارير تكون من الزجاج وهذه الأكواب من الفضة، لذا جاء قوله تعالى: "قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ: فيه تكرير؛ احتراسا عن كونها من الزجاج أي " أنها من فضة ترى باطنها من ظاهرها كالزجاج."[1] فاجتمع لها بياض الفضة وصفاء القوارير وشفافيتها.

وهي خلقة عجيبة الشأن طريفة؛ لذا دل عليها – سبحانه – بلفظة " كانت " من قوله كن فيكون أي تكونت قوارير بتكوين الله تفخيما لتلك الخلقة العجيبة الشأن الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين. [2]

" قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا " أي قدروها الطائفون على قدر ري من غير زيادة ولا نقص وذلك آلة الشراب. [3]

وهكذا ترى أن السياق الذي وردت فيه الأكواب هنا مختلف عن سابقيه؛ ذلك أن فئة المنعمين يختلفون مما يقتضي اختلاف صنف النعيم ذاته.

وكذا يختلف السياق الذي وردت فيه **الأكواب في الموضع الرابع** من سورة الغاشية، ويختلف فيه حال الأكواب،حيث يقول تعالى:﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ(٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣)

(١) تفسير الجلالين: جـ ٢/ ٧٦.

(٢) الكشاف للزمخشري: ١١٦٦.

(٣) تفسير الجلالين: جـ ٢ / ٧٦.

وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤)﴾

المعنى العام:

في الجنة مما ينعم به الأبرار أكواب يشربون بها موضوعة على حافات العيون، كلما أرادوا أن يشربوا منها وجدوها حاضرة لديهم لا يحتاجون إلى أن يدعوا بها.

التحليل البلاغي:

الأكواب هنا وصفت بأنها موضوعة وهذا الوصف خارج عن ذات الأكواب، وإنما الوصف هنا للهيئة المعدة عليها الأكواب، فهي موضوعة أي مصفوفة بانتظام ونسق "على حافات العيون معدة لشربهم. "(١)

فهذا وصف لحال الإعداد والتجهيز قبل دخولهم الجنة؛ لذا كانت الأكواب موضوعة لم يطف بها بعد، وكذا ما ورد قبلها وبعدها من صنوف النعيم، والغرض من وراء ذلك التشويق لها ومن ثم الحث على الأعمال الصالحة التي تؤدي إليها؛ إذ وقع ذلك في مفتتح سورة الغاشية في سياق ذكر الله تعالى أمر القيامة، وانقسام أهلها إلى أشقياء وسعداء، فبدأ بالأشقياء وجزائهم؛ للترهيب والتنفير، وثنى بالسعداء وبيان ما أعد الله لهم للترغيب والتشويق." وقد ذكر سبحانه كل ما سلف تصويرا لترف أهل الجنة، تصويرا يقربه من عقولهم ويستطيعون به إدراكه وفهمه، وإلا فإن نعيم الجنة مما يسمو على الفكر ويعلو فوق متناول الإدراك، فالأشياء التي عددها سبحانه تتشابه مع نظائرها التي في هذه الحياة بأسمائها، فأما حقائقها وذواتها فليست مثلها ولا قريبة منها، كما أثر عن ابن عباس -رضي الله عنهما - أنه قال: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء."(٢)

---

(١) تفسير الجلالين: جـ ٢/ ٥٩٢.

(٢) حدائق الروح والريحان : جـ ٣١ / ٣٨٢.

المبحـــث الــرابع

التنـــور

التنور " تفعول من النار فارسي معرب، وقيل هو بكل لغة ... وهو نوع من الكوانين، أو هو الذي يخبز فيه، وقيل هو وجه الأرض، وكل مفجر ماء تنور ...وتنانير الوادي محافله. "(١)

والتنور من أدوات المعيشة التي تستخدم في إنضاج الطعام، إذ كان هو الفرن الذي يخبز فيه، أو اسم لموقد النار الذي توضع فوقه قدور الطعام.

وقد ورد في القرآن الكريم في موضعين كلاهما في قصة نوح – عليه السلام – والسفينة، وكل منهما كناية عن اشتداد الحال إلا أن السياق مختلف.

فالموضع الأول ورد في قوله تعالى:

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [سورة هود٤٠]

والموضع الثاني في قوله تعالى:

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [سورة المؤمنون٢٧]

مفردات اللغة: جاء أمرنا: تحقق وعد الله بنزول العذاب على الكافرين ونجاة المؤمنين، فار

(١) اللسان: مادة تنر .

التنور: فار من الفوران المعروف الناتج عن شدة غليان الماء، والتنور: هو ما يخبز فيه الخبز،(١) والمقصود حلول وقت الانتقام منهم ونزول العذاب بهم، أسلك : أدخل .

المعنى العام:

فإذا جاء وقت قضائنا على قومك، بعذابهم وإهلاكهم؛ وفار التنور ورأيت بوادر هلاكهم، فأدخل في السفينة من كل جنس زوجين، وأدخل أهلك إلا من سبق عليه القول منا، بأنه هالك فلا تحمله معك.

التحليل البلاغي:

نلحظ في كلا الآيتين أن التنور فاعل للفعل " فار" فهو ملازم لحدث الفوران، إذ يقال: "فار الشيء إذا جاش ....، وفارت القدر إذا غلت وجاشت ... وفار الماء من العين يفور إذا جاش،

وفي الحديث فجعل الماء يفور من بين أصابعه أي يغلي ويظهر متدفقا"(٢)

فالفوران إذن يكون للماء على كل حال سواء كان في حالة الغليان وجيشانه من القدر أو في حالة التفجر والنبع، إذ يكون له قوة واندفاع وجيشان كذلك، إلا أنه في حالة فوران القدر يكون الماء حارا وفي حالة فوران النبع الماء باردا.

وفسره ابن عاشور بأنه " غليان القدر ويطلق على نبع الماء بشدة تشبيها بفوران ما في القدر إذا غلى."(٣)

---

(١) اللسان: مادة تنر.

(٢) السابق: مادة فور.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور جـ ١٢ / ٧٠

وذكر القرطبي أن التنور اختلف فيه على أقوال سبعة، الأول: أنه وجه الأرض، والعرب تسمى وجه الأرض تنورا، والمعنى أذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك.

الثاني: أنه تنور الخبز الذي يخبز فيه، وكان تنورا من حجارة وكان لحواء حتى صار لنوح ... وأنبع الله الماء من التنور فعلمت به امرأته فأخبرته فقال جاء وعد ربي حقا.

الثالث: أنه موضع اجتماع الماء في السفينة.

الرابع: انه طلوع الفجر، ونور الصبح من قولهم نوَّر الفجر تنويرا.

الخامس: أنه مسجد الكوفة، قاله علي بن أبي طالب، وقاله مجاهد، اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلي كندة، وكان فوران الماء منه علما لنوح ودليلا على هلاك قومه.

السادس: أنه أعالي الأرض والمواضع المرتفعة من قاله قتادة.

السابع: أنه العين التي بالجزيرة عين وردة، كان تنور آدم وقال بن عباس أيضا فار تنور آدم بالهند، وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأن الله عز وجل أخبرنا أن الماء جاء من السماء والأرض. [1]"فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ" [القمر١٢،١١]

وكل هذه الأقوال مفسرة على أن ثمة تنور وفوران حقيقي حاصل وأنه علامة جعلها الله تعالى لنوح -عليه السلام – ليعلم بها مبدأ الطوفان فيركب السفينة ويركب من معه.

ولكن هناك من يرى أن فار التنور" تعبيرا مجازيا كناية عن اشتداد الأمر وصعوبته "[1]

أو هو تمثيل لحضور العذاب كقولهم: حمي الوطيس، إذا اشتدت الحرب، والوطيس التنور، ويقال فارت قدر القوم إذا اشتد حربهم"[2] قال شاعرهم:[3]

تركتم قدركم لا شيء فيها وقدر القوم حامية تفور

أو هو "مثل لبلوغ الشيء إلى أقصى ما يتحمل مثله، كما يقال: بلغ السيل الزبى، وامتلأ الصاغ، وفاضت الكأس وتفاقم الأمر."[4]

فإذا ما أخذنا تعبير" وفار التنور " على التوجيه الأول، كان التنور مذكورا على حقيقته والفوران كذلك لفظا واستعمالا كعلامة لنوح – عليه السلام – لمعرفة بدء العذاب لينجو ومن معه، وفورانه حينئذ لابد، وأنه يكون على غير العادة والمألوف حتى يصلح أن يكون رمزا لبدء الطوفان، وهذا هو الغرض من إسناد الفوران للتنور وهو من المجاز العقلي لعلاقة المكانية، فالتنور ذاته لا يفور وإنما يفور الماء في القدر الذي في التنور.

وإذا ما أخذنا " فار التنور " على التوجيه الثاني فيكون هذا التعبير من المجاز اللغوي حيث لم يكن هناك تنور ولا فوران حقيقي وقع، وإنما شبهت حال انهمار الماء ونبوعه بقوة من السماء والأرض ليلتقي متجمعا مكونا الطوفان؛ ليزداد الأمر شدة وصعوبة بحال فوران الماء وانسكابه من كل جانب داخل التنور نظرا لحموه وشدة حرارته، ثم حذف

---

(١) تفسير الخازن: جـ ٢ / ٣٥١ .

(٢) الجامع للقرطبي جـ ٩ / ٣٤ .

(٣) شرح ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي : ١٩٣ .

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور جـ ١٢/ ٧١ .

المشبه، واستعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية، وذلك للمبالغة الدالة على الهول العظيم.

ثم كنى بالمعنى المجازي عن لازمه وهو بدء العذاب بالطوفان حيث لا يفور ماء القدر إلا عند بدء الأخذ في شدة الحمو والغليان لإنضاجه.

وترى الكناية هنا قد بنيت على المجاز، ولا غرو" فالكناية إذا وردت تجاذبها جانبا حقيقة ومجاز، وجاز حملها على الجانبين معا، ألا ترى أن اللمس في قوله تعالى: "أو لامستم النساء" يجوز حمله على الحقيقة والمجاز، وكل منهما يصح به المعنى ولا يتخيل؛ ولهذا ذهب الشافعي – رحمه الله – إلى أن اللمس هو مصافحة الجسد للجسد فأوجب الوضوء على الرجل إذا لامس المرأة، وذلك هو الحقيقة في اللمس التزاما بالوضع المصطلح عليه، وذهب غيره إلى أن المراد باللمس هو الجماع، وذلك مجاز فيه وهو الكناية."[1]

وقد رجح القاسمي جانب المجاز والكناية عن اشتداد الأمر فقال: " وعندي أنه أظهر الأوجه المذكورة وأرقها وأبدعها وأبلغها ... ومما يؤيد شموله لشدة الأمر من السماء والأرض ... وأما غيره فمقصود على ناحية الأرض فقط وجلي أن الأمر كان أعم . والله أعلم " [2]

(١) المثل السائر جـ ٣ / ٥١٢ .

(٢) محاسن التأويل للقاسمي جـ ٩ / ٣٤٣٦ .

المبحث الخامس

الجفان

الجفان: جمع جفنة " معروفة أعظم ما يكون من القصاع "[1]، وقد وردت الجفان في موضع واحد في القرآن الكريم، يقول تعالى:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ :١٣]

مفردات اللغة:

محاريب: جمع محراب وهو البناء المرتفع الذي يُرقى إليه بدرج، والقصر العالي. سمي محرابا؛ لأنه يذب عنه ويحارب عليه تشبيها بمحراب المسجد؛ لأنه يحارب فيه الشيطان[2]، تماثيل: جمع تمثال وهو الشيء المصور [3]، جفان: جمع جفنة، والجفنة خصت بوعاء الأطعمة.[4]

المعنى العام:

يبين الله تعالى ما يعمله الجن لنبيه سليمان – عليه السلام – بقدرته تعالى وتسخيرهم له، فيعملون له ما يشاء من المباني الشاهقة والتماثيل البديعة والقصاع العجيبة في اتساعها التي تكفي الكثير من الناس، والقدور العظيمة الراسخة الثابتة في مكانها لا تتغير ولا تتحول من كبرها وعظمها وغيرها مما يشاء عمله، ثم أمر الله تعالى آل داود بالشكر على نعمته

(١) اللسان: مادة جفن.

(٢) حدائق الروح والريحان: جـ ٢٣ / ٢٠٤.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني: مادة مثل.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني: جفن.

عليهم، وبين أن الشاكر لنعمته من عباده قليل.

التحليل البلاغي:

جاءت الجفان مشبهة بالجوابِ جمع جوب وهي الدلو العظيمة، والجوبة الحفرة، والمكان الوطيء في جلد، وفجوة ما بين البيوت أو فضاء أملس بين أرضين. (١)

وذكر ابن عاشور في تفسيره أن الجفان جمع جفنة، وهي القصعة العظيمة التي يجفن فيها الماء. والجوابي جمع جابية، وهي الحوض العظيم الواسع العميق الذي يجمع فيها الماء لسقي الأشجار والزروع، قال الأعشى:(٢)

نفى الذم عن رهط المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقي تفهق

أي الجفنة في سعتها كجابية الرجل العراقي، وأهل العراق أهل كروم وغروس، فكانوا يجمعون الماء للسقي.(٣)

فقد شبهت الجفان بالجوابي في العظمة والسعة، وقيل: " كان يقعد على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها "(٤)

وقيل: " الجفان جمع جفنة وهي كالصحفة والقصعة ما يوضع فيه الطعام مطلقا، وقيل الجفنة أعظم القصاع، ثم يليها القصعة وهو ما تشبع العشرة ثم الصحفة، وهي ما تشبع

(١) القاموس المحيط باب الباء فصل الجيم .

(٢) ديوان الأعشى الكبير :٢٢٥ وصحيح البيت في الديوان :

نفى الذم عن آل المحلق جفنة كجابية السيح العراقي تفهق (والسيح : النهر) .

(٣) التحرير والتنوير جـ ٢٢/ ١٦٢ .

(٤) تفسير البغوي جـ٦ / ٣٩١ .

خمسة، ثم المئكلة وهي ما تشبع ثلاثة أو اثنين ثم الصحيفة."[1]

ويروى أنه " كان لمطبخه – أي لسليمان عليه السلام – كل يوم اثنا عشر ألف شاة وألف بقرة، وكان له اثنا عشر ألف خباز، واثنا عشر ألف طباخ يصلحون الطعام في تلك الجفان لكثرة القوم."[2]

فقد شبهت الجفان بالجوابي في العظمة والسعة وهو تشبيه مرسل لذكر الأداة (الكاف) ومجمل لحذف وجه الشبه اعتمادا على معرفته، والغرض من هذا التشبيه أنه انتظم في سياق بيان عظم وهول ما سخره الله تعالى لنبيه سليمان – عليه السلام – مما لا يقدر عليه أحد ولا يشبهه نظير، ولكنه يشير في ذات الوقت إلى أن قدرة الجن محدودة ومقيدة بما يهبه الله تعالى لهم؛ حتى لا يظن أحد أن قدرته الخارقة للعادة قدرة مطلقة تتشابه مع قدرة الله تعالى أو تخرج عن سلطانه، فشبه الجفان على عظمتها وندرة الشكل الذي أتت عليه بالجوابي التي يألفونها ويعرفون ماهيتها، وورود التشبيه بالكاف يدل على هذا أيضا إذ كانت الكاف تدل على الشبه ولا تؤكده كما هو الحال في (كأن).

فذكر الجفان مسوق على الحقيقة وإنما ورد التعبير بها في صورة التشبيه؛ لانعكاس صورة المشبه به عليها لتقريب صورة العظمة والسعة للذهن، وإلا فهي جفان عظيمة مهولة ليس لها شبيه أو مثيل إذ هي تسخير خاص من الله تعالى لنبيه – سليمان عليه السلام – وفيها دلالة على عظمة وسعة وفخامة الدور التي كانت تقدم فيها، فإذا كان حال قصاع الأكل هكذا كبيرة عظيمة فما بالنا بالساحات، وفي هذا إشارة إلى تكريم أهل هذه الدور والجفان

(١) تفسير القاسمي جـ/ ٤٩٤٣ .

(٢) حدائق الروح والريحان جـ ٢٣ / ٢٠٧ .

من الله تعالى؛ لرضاه عنهم وفيه إشارة كذلك إلى كرمهم هم أيضا، إذ كانوا يقدمون الطعام في مثل هذه الجفان الضخمة، وختام الآية بعدها بقوله تعالى: "اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ." [سبأ :١٣] فيه إشارة إلى أن هذا الذي يعجب منه ويستعظم لم يلههم عن العبادة ومن ثم استحقوا هذا التكريم والتعظيم.

المبحث السادس
الدلو- الذنوب

أولا: الدلو

الدلو: واحدة الدلاء التي يستقى بها، تذكر وتؤنث والتأنيث أعلى وأكثر ... تقول دلوتها أدلوها دلوا إذا أخرجتها وجذبتها من البئر ملأي... ولا يكون التدلي إلا من علو إلى استفال."[1] والدلو: " ظرف كبير من جلد محنط له خرطوم في أسفله يكون مطويا على ظاهر الظرف بسبب شده بحبل مقارن للحبل المعلقة فيه الدلو."[2] قال عدي يصف فرسا:[3]

فهو كالدلو بكف المستقى خُذلت منه العراقي فانجذم

فالدلو من أدوات المعيشة التي تستخدم في الاستقاء ونحوه من الأعمال الأخرى ولا غنى للإنسان عنها منذ القدم وحتى الآن.

وقد وردت في القرآن الكريم صراحة على وجه الحقيقة في سورة يوسف، كما ورد ما اشتق منها واستعمل على سبيل المجاز في سورتي البقرة والنجم.

فأما آية سورة يوسف فقوله تعالى: ﴿وجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف :١٩]

مفردات اللغة:

فأدلى دلوه: الدلو الذي يستقى بها، ودلى الدلو إذا نزعها، وأدلاها أرسلها في البئر، والدلو

(١) لسان العرب: مادة .

(٢) التحرير والتنوير جـ ١٢ / ٢٤١ .

(٣) ديوان عدي بن زيد العبادي : ٧٥ .

مؤنث وقد يذكر، أسروه: أخفوه من الناس. (١)

المعنى العام:

وجاءت رفقة مسافرون فلما رأوا بئرا في الطريق بعثوا ساقيهم ليطلب لهم الماء، فأنزل دلوه في الجب فرأى غلاما قد تعلق بالدلو فنادى أصحابه فاجتمعوا عليه فأخرجوه من الجب، وكتموا أمره؛ ليتخذوه بضاعة للتجارة يتكسبون منها.

التحليل البلاغي:

جاءت مارة في الطريق من المسافرين فأرسلوا واردهم الذي يرد المنهل والمنزل ليستقوا فأرسل دلوه في البئر، فإذا بالدلو يخرج لهم من البئر فيه يوسف إلى آخر القصة.

فترى الدلو هنا مذكورة على استعمالها الحقيقي وهو الإدلاء بها في البئر لاستقاء الماء.

وقد وردت وسط نظم غاية في الحسن والرفعة ففيه إيجاز بالحذف استغني بدلالة ما ذكر عليه، والتقدير فأدلى دلوه فتعلق بها يوسف فخرج، فقال المدلى يا بشرى هذا غلام. (٢)

وجملة " قال يا بشرى " جاءت في موضع الفصل عن سابقتها لشبه كمال الاتصال بينهما فهي " مستأنفة استئنافا بيانيا؛ لأن ذكر إدلاء الدلو يهيئ السامع للسؤال عما جرى حينئذ فيقع جوابه " قال يا بشرى. "(٣)

وفي نداء البشرى مجاز بالاستعارة المكنية حيث شبهت البشرى بالإنسان العاقل بجامع الدلالة على حدوث أمر مهم ثم حذف المشبه به وجيء بشيء من لوازمه وهو النداء، قال الزجاج: معنى النداء في هذه الأشياء التي لا تجيب ولا تعقل إنما هو على تنبيه المخاطبين

(١) حدائق الروح والريحان جـ ١٨ / ٣٦١.

(٢) تفسير الطبري جـ ٤ / ٣٣٧.

(٣) التحرير والتنوير جـ ١٢ / ٢٤١.

وتوكيدا لقصة إذا قلت يا عجباه فكأنك قلت أعجبوا ويا أيها العجب هذا من حينك وكذلك إذا قال يا بشرى فكأنه قال ابشروا، وكأنه قال: يا أيها البشرى وهذا من إبانك وزمانك. (١)

واستعمال اسم الإشارة " هذا غلام " فيه إشعار للسامع بأنه قد حصل على شيء سار غير متوقع.

كما أن في أدلى دلوه جناس اشتقاق مغاير فيه حسن انتقال من صيغة الفعل إلى اسم مشتق منها على نحو يشعرنا بمدى السلاسة والعذوبة في هذا الانتقال المتجاور مما يعكس إيحاءً إلى ذهن السامع بتصور حالة التقاط يوسف وأنه كان أمرا سريعا دون تعثر أو تكرار محاولات تدلي الدلو وإخراجه وفيه يوسف.

ويتآزر معه في إبراز هذه الفورية وقوع الحذف بعده ومجيء البشرى بالتقاط يوسف عن طريق الفصل هذا بالإضافة إلى ما أكسبه هذا اللون من الجناس للألفاظ من الرونق والطلاوة؛ ذلك أن "اللفظ المشترك إذا حمل على معنى ثم جاء – والمراد به معنى آخر – كان للنفس تشوق إليه."(٢)

وانظر إلى " الدلو " هذه الأداة البسيطة في المعيشة كيف كانت أداة إنقاذ ليوسف – عليه السلام – وبداية نصرة الله له على ظلم إخوته له وردا لكيد حسدهم له، وكيف أبرزت عناية الله وحفظه له والرأفة بنبيه يعقوب – عليه السلام – برد ابنه إليه جزاء صبره وتحمله ثقة بأن الله سيرده عليه تحقيقا لنبوءته في ذلك، فأشار استعمالها هنا إلى معنى أبعد من كونها

(١) معاني القرآن للزجاج جـ ٣/ ٩٧ .

(٢)عروس الأفراح جـ ٤ / ٤١٣ ، والإتقان جـ ٢ / ١٥٣ .

وعاء لإخراج الماء من البئر.

أما ما ورد في سور البقرة والأعراف والنجم من قوله تعالى: " وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ."[البقرة:١٨٨] وقوله تعالى : "فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ . "[الأعراف :٢٢] وقوله جل وعلا: "ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى"[النجم :٨]

فوجه ارتباطها بالدلو أنها استعارة معنى الدلو والتدلي به، ففي آية سورة البقرة استعارة هذا المعنى للمبادرة إلى الحكام بالخصومة أو بالرشوة ليحكم له بالباطل " من إرسال الدلو ...كأنها يمد بها لتقضي الحاجة."(١)

وكذا الحال في قوله تعالى:" فَدَلَّاهُمَا بِغُرُور " وأصله الرجل العطشان يدلي في البئر ليروي من مائها فلا يجد فيه ماء، فيكون مدليا فيها بالغرور، فوضعت التدلية موضع الأطماع فيما لا يجدي نفعا."(٢) ففيه استعارة تمثيلية بـ " تمثيل حال من يطلب شيئا من مظنته فلا يجده بحال من يدلي دلوه أو رجله في البئر ليستقي من مائها فلا يجد فيها ماء."(٣) فوضعت التدلية موضع الطمع فيما لا فائدة فيه.

ومثله في استعارة معنى الدلو والتدلي في قوله تعالى: " ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى " "وأصل التدلي

(١) البحر المحيط: ٢/ ٩٤.

(٢) اللسان: مادة دلا.

(٣) التحرير والتنوير جـ٨ / ٦١

النزول إلى الشيء حتى يقرب منه فوضع موضع القرب [١]، "أي ينزل من طبقات إلى تحتها كما يتدلى الشيء المعلق في الهواء بحيث لو رآه الرائي يحسبه متدليا وهو ينزل من السماء غير منقض. [٢]

ثانيا: الذنوب

الذنوب: الدلو فيه ماء، وقيل الدلو التي يكون الماء دون ملئها أو قريب منه، وقيل: هي الدلو الملأي، ولا يقال لها وهي فارغة ذنوب، وقيل هي الدلو ما كانت... وقيل هي الدلو العظيمة ... تذكر وتؤنث، والجمع أذنبة وذنائب.

والذنوب: الحظ والنصيب، قال أبو ذؤيب:[٣]

لعمرك والمنايا غالبات لكل بني أب منها ذنوب

استعار الذنوب للقبر حين جعله بئرا"[٤]

وقد وردت الذنوب في القرآن الكريم في موضع واحد في قوله تعالى: "فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ " [الذاريات :٥٩]

مفردات اللغة:

الذنوب: الفرس الطويل الذنب، والدلو التي لها ذنب، واستعير للنصيب، كما استعير له السجل. [٥]

المعنى العام:

فإن للذين ظلموا أنفسهم بإشراكهم بالله عز وجل، وتكذيبهم رسوله نصيبا من

(٣) ديوان أبي ذؤيب الهذلي تحقيق أحمد جمال الشال :٧٤.

(٤) اللسان: مادة ذنب .

(٥) مفردات الراغب: ذنب.

العذاب مثل نصيب نظرائهم من الأمم السالفة التي كذبت رسلها، فلا يطلبوا مني أن أعجل بالإتيان به، فإني لا أخاف الفوت، ولا يلحقني عجز.

التحليل البلاغي:

" الذنوب في كلام العرب الدلو العظيمة، ولكن العرب تذهب بها إلى النصيب والحظ وبذلك أتى التفسير: فإن للذين ظلموا حظا من العذاب كما نزل بالذين من قبلهم."(١)

ويقول الزمخشري: "وهذا تمثيل أصله في السقاة يتقاسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب."(٢)

فالذنوب هنا ليس مذكورا على حقيقته، وإنما هو مستعار للنصيب العظيم من العذاب، على تشبيه النصيب من العذاب بذنوب الماء (الدلو العظيمة) الذي به حظ ونصيب أحد السقاة من قسمة الماء بجامع نيل القسط المناسب في كل، ثم حذف المشبه وأقيم المشبه به مقامه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، ثم بنى على هذه الاستعارة تشبيه تمثيلي، حيث شبه حال تساوي نصيب الذين ظلموا من العرب من العذاب بنصيب الذين ظلموا من الأمم السابقة من العذاب بحال الذين يستقون من قليب واحد إذ يتساوون في أنصبائهم من الماء.

وهو تشبيه معقول بمحسوس إذ كانت الحالة الأولى معقولة لا يمكن إدراكها بإحدى الحواس الخمس الظاهرة بينما الحالة الثانية محسوسة بطريق البصر والمشاهدة، فانتقل بالذهن من صورة خفية إلى صورة جلية تصور قدر عذاب السابقين – وهو أمر خفي إذ لم

(١) معاني القرآن للفراء جـ٣/ ٩٠.

(٢) الكشاف: ١٠٥٥.

يشاهدوه بل لم يصدقوه – في صورة الذنوب وتوزيع الأنصبة ليشبه به في أنه يصب عليهم العذاب كما يصب الماء من الذنوب.

وهو تشبيه مرسل حيث ذكرت أداة التشبيه، ومجمل حيث حذف منه وجه الشبه أي لهم نصيب من العذاب مثل نصيب أسلافهم المكذبين لأنبيائهم في الشدة والغلظة، " وأطلق على الأمم الماضية اسم وصف أصحاب الذين ظلموا باعتبار الهيئة المشبه بها إذ هي هيئة جماعات الورد يكونون متصاحبين. "(١)

والآية بهذا التشبيه تفريع على ما ورد قبلها في قوله تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" [الذاريات :٥٦] أي فإن لم يتركوا شركهم ويفردوني بالعبادة فسيكون لهم نصيب عظيم من العذاب كمن سبقوهم من الأمم المكذبة حيث ورد بيان ما حل ببعضهم من العذاب في بداية السورة مثل الخراصون وقوم لوط وفرعون وأتباعه، وقوم عاد وقوم نوح فور ختام السورة بيان لأن من كذب وأشرك وعاند مثل السابقين سيكون جزاؤه كمًا مهولا من العذاب مثلهم والرابط في ذلك جاء متوسطا بين البيان الأول والثاني بقوله تعالى: " كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ" [الذاريات:٥٢،٥٣] أي مثل قولهم فكذا قدر العقاب يكون مثل قدر عقابهم .

وختام الآية بـ "فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ " كان له موقعا حسنا في مشابهة نصيبهم من العذاب كسابقيهم إذ كان موقعها في ختام السورة وختام الحديث عن عقاب المشركين كما ورد في بداية السورة وبداية الحديث عن عقاب الأمم المشركة السابقة بقوله تعالى: "ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ

(١) التحرير والتنوير جـ ٢٧ / ٣٠.

هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ" [الذاريات:١٤]

فالمشركين السابقين ذاقوا فعلا ما استعجلوه من العذاب وهؤلاء المشركين المكذبين بالإسلام سيذوقون نصيبا وافرا من العذاب الذي يستعجلونه فشاكل ختام السورة بدايتها وبرز في معرض بديع من التناسب والتلاؤم بين البداية والنهاية.

والنهي في فلا يستعجلون الغرض منه التهكم المتضمن الوعيد إشعارا بشدة غضب الله عليهم.

"وفي يستعجلون" إيجاز بحذف حرف، إذ الأصل فلا تستعجلوني فحذفت ياء المتكلم مطابقة لحالهم في تكذيبهم بالله فكأنه تعالى ذكر الفعل خاليا من الضمير العائد عليه لئلا يقترن ذكره بذكرهم، إذ كان ضمير الفاعل راجعا إليهم غضبا منه عليهم أو لعدم أحقيتهم في استعجاله – جل وعلا – فهو لا يخاف فوتا ولا يلحقه عجز.

والخطاب في الآية للرسول – صلى الله عليه وسلم – تسلية له وتسرية عنه عما يلقاه من هؤلاء المشركين في سبيل الدعوة إلى الله، لكن تلحظ نبرة التعريض بالمشركين؛ إذ كان المراد إسماعهم لإعلامهم بما سيلقونه جزاء ما يصنعونه.

وفي مثل هذا الموضع تكمن القيمة الفنية للإيجاز؛ حيث " يزيد من دلالته الكلام من طريق الإيحاء؛ لأنه يترك على أطراف المعاني ظلالا حقيقية يشتغل بها الذهن، ويعمل فيها الخيال حتى تبرز وتتلون وتتسع ثم تتشعب إلى معان أخرى يتحملها اللفظ بالتفسير والتأويل."[1]

(١) دفاع عن البلاغة ، أحمد حسن الزيات : ٩٩ .

المبحث السابع

السقاية

السقاية: " إناء يسقى به، وهو الصاع والصواع بعينه، والسقاية: الموضع الذي يتخذ فيه الشراب في المواسم وغيرها، والسقاية في القرآن: الصواع الذي كان يشرب فيه الملك وهو قوله تعالى : " فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه "، وكان إناء من فضة، كانوا يكيلون الطعام به، ويقال للبيت الذي يتخذ مجمعا للماء ويسقى منه الناس: السقاية وسقاية الحاج: سقيهم الشراب، وفي حديث معاوية: إنه باع سقاية من ذهب بأكثر من وزنها، والسقاية إناء يشرب فيه، وسقاية الماء معروفة ."[1]

فالسقاية إذن من أدوات الشراب فهي إناء يستخدم في الشراب، وقد وردت لفظة السقاية في موضعين من القرآن الكريم أولهما في قوله تعالى : " أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ." [التوبة :١٩] الثاني في قوله تعالى : "فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ " [يوسف:٧٠]

مفردات اللغة:

جهزهم بجهازهم: أي هيأ لهم يوسف ما يحتاجون إليه للسفر وحمل لهم الطعام على إبلهم السقاية: المشربة، إناء يشرب منه جعلها يوسف مكيالا لئلا يكال بغيرها[2]، وهو المسمى

(١) اللسان : مادة سقى .

(٢) حدائق الروح :جـ١٤ / ٤٩ .

صواع الملك فتسمية السقاية تنبيها على أنه يسقى بها وتسميته صواعا أنه يكال به.[١]

المعنى العام:

بعد أن هيأ يوسف – عليه السلام – أخوته للسفر وأعطاهم ما يحتاجون إليه جعل المشربة التي يكتال بها الطعام في رحل أخيه الصغير كحيلة يستطيع بها إبقاء أخيه معه، وأمهلهم حتى انطلقوا ثم نادى مناد من فتيان يوسف يا أصحاب العير قد ثبت عندنا أنكم سارقون لسقاية الملك فلا ترحلوا حتى نفتشها في رحالكم.

التحليل البلاغي:

والأصل فيها أنها مصدر قياسي من الفعل " فعل "بفتح الفاء والعين يدل على حرفة.[٢] السقاء، وهو الموافق لآية التوبة إذ المراد سقيهم الماء ينبذ فيه النبيذ وهو من مآثر قريش، [٣] فهي مسوقة للتوبيخ من الله تعالى لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت فأعلمهم جل ثناؤه أن الفخر في الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله لا في الذي افتخروا به من السدانة والسقاية. [٤]

أما آية سورة يوسف فهي مستعملة بمعنى الإناء الذي يسقى به، فهي في موضع اسم الآلة مِشْربة فتكون من أدوات المعيشة باعتبارها إناء يستخدم للشرب به "جعلها يوسف مكيالا لئلا يكال بغيرها، يشرب فيها، أو كال بها لأخوته إكراما لهم، وكانت من الذهب والفضة، وكان الشرب في إناء الذهب والفضة مباحا في الشريعة الأولى، فالسقاية أو الصواع اسم لإناء ... والمعنى: فلما قضى لها حاجتهم ووفاهم كيلهم جعل الإناء الذي

(١) مفردات الراغب: مادة سقى.

يكيل به الطعام في رحل أخيه."[1]

وتعريف السقاية يدل على أنها كانت معروفة أنها مشربة الملك، فـ (أل) فيها للعهد، وهذا يشير إلى أنها مخصوصة ومميزة خاصة إذا كانت على الوصف الذي ذكره المفسرون من أنها كانت من الفضة أو الذهب أو مرصعة بالجواهر، وهذا من شأنه أن يساعد يوسف – عليه السلام – على إجراء حيلته في إبقاء أخيه عنده بدسها في رحله، إذ كان في سُنة آل يعقوب في حكم السارق أن يسلم برقبته إلى المسروق منه فيسترقه سنة، وفي حكم ملك مصر أن يُضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق، فأراد يوسف أن يأخذ بحكم أبيه في السارق فلذلك رد الحكم إليهم.[2]حتى يستبقي أخاه عنده باعتبار أن المسروق وجد في رحله. "قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ، قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ." [يوسف:٧٤، ٧٥]

وفي إسناد جعل السقاية إلى ضمير يوسف مجاز عقلي علاقته السببية على أن فاعل الجعل عمال يوسف الموكلون بالكيل، أما هو فآمر لهم بجعل السقاية في رحل أخيه إذ هو نائب الملك أو وزيره على الخزائن، ومن شأنه أن يكون له عمال يقومون بما يريد عمله.

ويحتمل أيضا أنه وضعها بيده، ولم يكل ذلك إلى أحد من عماله لئلا يطلعوا على مكيدته، فلا مجاز فيها حينئذ.

وقال المفسرون أن السقاية هي ذات الصواع الذي ذكر بعد، وإنه أناء له رأسان في وسطه

(١) حدائق الروح والريحان جـ ١٤ / ٤٩ .

(٢) حدائق الروح والريحان جـ ١٤ / ٥٤ .

مقبض كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد ويكال الطعام بالرأس الآخر.[1]

فحين أضافها ليوسف وما فعل بها قال السقاية لأنها كانت في حوزته، وذكره باللفظ الدال على عملها الأول وهو كونها إناء الشرب لأنه ربما استخدمت للشرب كذلك في ذات الوقت، أو ربما رجعت لعملها الأول بعد انتهاء مرحلة الكيل بها، على أن الكيل بها مرحلة مؤقته وستعود للشرب بها كما كانت عليه من قبل.

وحين أصبحت في رحل أخيه الذي بحوزة إخوته ذكرها بلفظة الصواع الذي يكال به؛ لأنها صارت خارجة عن عملها الأول، ودل الحال على عملها الثاني وهو الكيل بها، إذ لم يعد مهما إلا وضع الكيل لإثبات حيلة أنهم سارقون، حيث أصبحت أداة الكيل معهم وهو ما يمكن اتهامهم بأخذه، لأنه كان يكال لهم بها؛ لذا فخم أمرها بإضافتها إلى الملك أي أنهم سرقوا شيئا عظيما من خاصة الملك فلا يمكن المسامحة فيه أو الإفلات منه.

وعبر هنا بالفاء في " فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ" إشارة إلى طلب سرعة سيرهم وذهابهم إلى بلادهم بعد الكيل والتجهيز مباشرة، لأن الغرض من وجودهم قد تحقق وأصبح المطلوب مرحلة ما بعد رحيلهم لتحقيق الهدف بإثبات السرقة عليهم ومن ثم إبقاء أخيه معه فتطلبت الرغبة في سرعة حصول ذلك الفورية فجاء التعبير بالفاء بخلاف المرة الأولى في قوله تعالى: " وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ " [يوسف : ٥٩]

فقد ورد التعبير هنا بالواو لأنها لمطلق الجمع فهي مناسبة للمطلوب حيث لم يكن هناك استعجال لذهابهم بل كان يحتاج لإطالة الحديث معهم لإقناعهم بأن يأتوا بأخيهم المرة

(١) الجامع للقرطبي جـ ٩/ ٢٩

القادمة، وربما حصل له استئناس بالحديث معهم لأنه لم يرهم أو أحدا من أهله منذ سنين فلم يكن لهم كارها على الرغم مما فعلوه معه من قبل.

ومن براعة التعبير القرآني أن ناسب نفسية يوسف في الحالتين، فالحالة الأولى: استأنست نفسه بإخوته فهم جزء من أهله الذين لم يرهم منذ سنين فناسبها الواو التي عاونت على إبراز ذلك، والحالة الثانية: اشتاقت نفسه إلى الاستئثار بشقيقه الصغير، فناسبها الفاء الداعمة لذلك.

هذا وقد اشتمل السياق على حسن التعبير اللفظي بجناس الاشتقاق في كلتا الحالتين، جهزهم بجهازهم الذي أشار إلى ما يتضمنه المعنى أيضا من إكرام يوسف لإخوته على الرغم مما فعلوه معه وإحسانه إليهم بما أرادوا وفوق ما أرادوا، على أن المعنى أنه جهزهم بما أرادوا من الجهاز وأعطاهم ما طلبوه، ولم يضن عليهم بشيء ولم ينتقم منهم بمنع الكيل لهم، بل هيأ لهم ما يحتاجون إليه للسفر وحمل لهم أحمالهم من الطعام على العير التي أقبلوا عليها.

وقد ذكر المفسرون أنه أضافهم غاية الضيافة حتى قيل إنه " أجلس كل اثنين على مائدة، فلما كان الليل، أمرهم بمثل ذلك ... وأجرى عليهم الطعام فقال: روبيل- من إخوة يوسف - ما رأين مثل هذا قط."[1] وفاعل التجهيز هنا لا شك أنه فتيان يوسف، وليس يوسف نفسه؛ لأن مثل هذه الأعمال توكل للعمال المختصين بذلك، ولكنه هو الطالب لهم التجهيز والآمر به، فهو سببه على سبيل المجاز العقلي لعلاقة السببية.

وهذا اللون من المجاز تجده واردا في إسناد هذه الآيات أكثر من مرة للدلالة على تفخيم

(١) حدائق الروح والريحان: جـ ١٤ / ٤٨.

أمر يوسف– عليه السلام– وعظم شأنه الذي آل إليه بعد عنائه سنينا طوالا، حيث أصبح عزيزا ذا خدم وعمال يأمرهم فيقومون بما يريد، وفي شأن هذا اللون من المجاز يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: " وهذا الضرب من المجاز على جدته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان والاتساع في طرق البيان، ولا يغرنك من أمره أنك ترى الرجل يقول: أتى بي الشوق إلى لقائك، وسار بي الحنين إلى رؤيتك ... وأشباه ذلك مما تجده لشهرته يجري مجري الحقيقة، فليس هو كذلك، بل يدق ويلطف حتى يأتيك بالبدعة التي لم تعرفها، والنادرة تأنق لها."[1]

(١) دلائل الإعجاز :٢٢٨.

المبحث الثامن

السكين

السكين: المدية، تذكر وتؤنث، والسكينة لغة، [1] وهي آلة يذبح بها أو يقطع وجمعها سكاكين. [2]

فالسكين هي آلة القطع التي تستخدم في الطعام ونحوه، وقد وردت في القرآن الكريم في موضع واحد في سورة يوسف وهو قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [آية:٣١]

المعنى العام:

فلما سمعت مقالتهن التي يردن بها إغضابها حتى تريهن يوسف إبداء لمعذرتها، مكرت بهن كما مكرن بها، ودعتهن إلى الطعام في دارها، وهيأت لهن ما يتكئن عليه من كراسٍ وأرائك كما هو المعروف في بيوت العظماء، وأعطت كل واحدة منهن سكينا لتقطع بها ما تأكل من لحم وفاكهة، وأمرته بالخروج عليهن، فلما رأين يوسف أعظمنه ودهشن من شدة جماله، فقطعن أيديهن بدلا من تقطيع ما يأكلن ذهولا، لفرط دهشتهن، وقلن: حاشا لله، أي تنزيها وبراءة لله سبحانه وتعالى من كل النقائص، ليس هذا بشرا مثلنا؛ لأن جماله غير معهود، وما هو إلا ملك من الملائكة كريم على الله ، ذاك لأن جماله فوق جمال البشر .

التحليل البلاغي:

فلفظة السكين هنا هي السكين المعهودة على الحقيقة، أعطت كل واحدة من النسوة التي سمعت بمكرهن لها حيث تحدثن عن شغفها بيوسف وعبن عليها ذلك – أعطت كل

واحدة سكينا ليقطعن بها ما يحتاج إلى القطع مما يحضر من الأطعمة في هذا المجلس... فقيل كان لحما يأكلونه حزا بالسكاكين، وقال الرماني: ليقطعن فاكهة قدمت لهن.[1]

وقالت اخرج عليهن، فخرج فلما رأينه أكبرنه أي أعظمنه ودهشن برؤية جماله الفائق وقيل حضن[2] وقطعن أيديهن .

فترى السكين هنا استخدمت في الكيد والمكر بهؤلاء النسوة من قبل امرأة العزيز حتى يعذرنها ولا يلمنها على شغفها بيوسف، فها هنّ قد قطعن أيديهن لما رأينه.

والمقصود بالتقطيع هنا الجرح" كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي باستعارة القطع للجرح بجامع شدة الإصابة في كل على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

وتضعيف الطاء في قطعن يفيد تكرار القطع وكثرته " إما بالنسبة لكثرة القاطعات، وإما بالنسبة لتكثير الحز في يد كل واحدة منهن. "[3]حيث تكرير الحرف دليل على تكرار الفعل نفسه.[4]

وهذا التكرير والتكثير يتناسب وكثرة السكاكين، حيث أعطت كل واحدة سكينا، وقد قيل إن النسوة كن خمسا " امرأة صاحب الملك، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة الخباز، وامرأة الساقي، وامرأة صاحب السجن، وقيل هن نسوة من أشراف مصر. "[1]

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: جـ ١٠ / ٧٢ .

(٢) اللباب في علوم الكتاب: جـ ١١ / ٨٣ .

(٣) البحر المحيط: جـ ٥ / ٣٩٥ .

(٤) دراسات بلاغية في القرآن والحديث، د عبد الفتاح لاشين :٦٧.

(١) معالم التنزيل للقرطبي : جـ ٤ / ٢٣٦.

وقال تعالى: " آتت " ولم يقل أعطت مما يشير إلى أن السكاكين لم تكن موجودة حين دخل النسوة وإنما أمرت بها مع ما قدم لهن من الطعام ثم وزعت عليهن وكأن استضافتها لهن طبيعية وكأنها لم تنوِ لهم الكيد بقطع أيديهن بالسكاكين.

وفي آتت مجاز عقلي علاقته السببية، فهي لم تؤتهن السكاكين بنفسها، فليست الفاعل الحقيقي، وإنما هي آمرة للخدم بالإتيان، فسيق على أنه صادر منها مباشرة إذ كانت هي مدبرة الشأن والمكيدة.

ومما يعين على القطع أو الجرح الشديد أن تكون هذه السكاكين حادة كلها، وهي بالفعل لابد وأن تكون كذلك وعلى نسق واحد لأنها من الأدوات المستعملة في القصر فينبغي أن تكون على أفضل صورة وأحسن عملا.

وفي تنكير " سكينا " ما يشعر بذلك وكأنه قيل سكينا من سكاكين القصر المعروفة بحدتها واستوائها في الحدة على نمط واحد.

المبحث التاسع

الصحاف

الصحاف: جمع صحيفة " والصحفة: كالقصعة وقال ابن سيده: شبه قصعة مسلنطحة عريضة وهي تشبع الخمسة ونحوهم، والجمع صحاف، والصُّحَيفة أقل منها ... قال الكسائي: أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة تليها تشبع العشرة، ثم الصحفة تشبع الخمسة ونحوهم ثم المئكلة تشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصحيفة تشبع الرجل."[1]

وقد ورد في موضع واحد وهو قوله تعالى:

﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ، يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آَمَنُوا بِآَيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ، يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف : من الآية ٦٧ إلى ٧٣]

مفردات اللغة:

تحبرون: تنعمون وتسرون، والحبرة والحبور: السرور أي يفرحون حتى يظهر عليهم حبار نعيمهم، أي أثره على وجوههم.

المعنى العام:

أي وبعد أن استقر المؤمنون في الجنة، وهدأ روعهم، يطاف عليهم بألوان عظيمة من آنية الذهب، مترعة بألوان الأطعمة والحلوى، وبأكواب فيها أصناف الشراب مما لذ

(١) اللسان: مادة صحف.

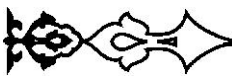

وطاب.

التحليل البلاغي:

وقعت الصحاف في سياق وعد الله تعالى لعباده المؤمنين بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وأنهم سيدخلون الجنة يحبرون فيها أي يسرون سرورا يظهر حباره أي أثره على وجوههم ويكرمون إكراما يبالغ فيه بألوان مختلفة من النعيم، حيث الحبرة: المبالغة فيما وصف بجميل،[1] ومن ضمن هذا النعيم أن يطاف عليهم بصحاف من ذهب يقدم فيها الطعام لهم كما يقدم الشراب في الأكواب، ومن صنوف هذا النعيم أن تكون هذه الصحاف من ذهب.

والذهب وصف للصحاف إلا أن دخول من عليه أفاد بيان نوع الصحاف وصنفها الذي صممت عليه وهو الذهب، أي أنها قد اتخذت من الذهب، فكل صحفة منها مكونة من الذهب الخالص وليس الذهب لونا خارجيا لها مطلية به مثلا ، وهذا أمعن في تنعم أهل الجنة؛ لأنهم امتثلوا لأمر الله وحرموا على أنفسهم الشهوات التي حرمها الله ومنها اتخاذ أواني الطعام والشراب من الذهب والفضة، فسيحصلون عليه في الآخرة جزاء من رب العالمين، وعلى وجه يفوق ما يمكن أن يتخيلوه فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ليس لهم فحسب، بل لأزواجهم معهم كذلك، ولك أن تتخيل هذه الصورة المحببة إلى النفس الرغبة في طاعة الله لنيل هذا الجزاء العظيم .

وهي هيئة دخول المؤمنين وأزواجهم بصحبتهم وقد فتحت أبواب الجنة لهم، وقد هيئت بكل ما فيها لراحتهم ومتعتهم، وهم مسرورون من الاستقبال الطيب المبهج، وبعد أن

(١) البحر المحيط: جـ٨ / ٣٧

استقروا فيها يدور عليهم خدم في غاية الجمال والزينة بأوان من ذهب منها صحاف للطعام وأكواب للشراب وبها ما لذ وطاب مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وغير ذلك مما ورد في وصف نعيم الآخرة.

فالصحاف كانت بداية ما يقدم أو يطاف به عليهم لإفادة حسن الاستقبال وشرفه، وكونها من ذهب يزيد الأمر بهجة ومتعة.

والتنكير في " ذهب " يفيد التفخيم ويشير إلى تميزه وعزته واختلافه عن الذهب المعهود، وأنه مما لم تره عين من قبل.

كما جاءت الصحاف على وزن فعال وهي صيغة جمع كثرة، بينما الأكواب على أفعال وهي صيغة جمع قلة لأن المعهود قلة أواني الشرب بالنسبة إلى أواني الأكل، حيث يحبب إلى النفس تنوع الطعام وكثرة صنوفه، لذا كثرت أوانيه بخلاف الشراب.

وقد ورد بعدها قوله تعالى: "وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ" وهو يشتمل عليها بالإضافة إلى غيرها فيكون إطناب بذكر العام بعد الخاص، والغرض منه تعداد أوجه النعيم إجمالا وتفصيلا؛ للترغيب في الحصول عليه بالإيمان والعمل الصالح في الدنيا.

وفي قوله تعالى: "يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ" التفات من الخطاب إلى الغيبة إلا أن ابن عاشور في تفسيره نفى الالتفات وأخرج الجملة معترضة من أجزاء القول وأن المقام لضمير الغيبة [1]. وهذا الرأي لم يقل به غيره من المفسرين ممن أعربوا القرآن كالزجاج.

والصحاف مذكورة على الحقيقة ليس فيها مجاز، ووصفها بالذهب وكونها مصممة منه حقيقي كذلك، إلا أنه ورد التعبير بها في معرض الكناية عن تمام النعيم وحسن الحبرة والتكريم الذي سيكون عليه المؤمنون أصحاب الجنة.

والمقصود أن لهم في الجنة أطعمة وأشربة يطاف بها عليهم في صحاف من ذهب وأكواب،

ولم يذكر الأطعمة والأشربة؛ لأنه يعلم أنه لا معنى للطواف بالصحاف والأكواب عليهم من غير أن يكون فيها شيء. [1] لذا أخرج التعبير في معرض الإيجاز، وهو من إيجاز القصر لتضمن الكلام المقصود.

المبحث العاشر

الطبق – الطباق

الطبق: غطاء كل شيء والجمع أطباق، وقد أطبقه وطبقه فانطبق، وتطبق: غطاه وجعله مطبقا، ومنه قولهم: لو تطبقت السماء على الأرض ما فعلت كذا ...والطبق غطاء لازم على الشيء، وطبق كل شيء: ما ساواه والجمع أطباق. والمطابقة: الموافقة، وطابقت بين الشيئين إذا جعلتهما على حذو واحد وألزمتهما ... والسموات الطباق سميت بذلك لمطابقة بعضها بعضا أي بعضها فوق بعض ... والطبق: الذي يؤكل عليه أوفيه، والجمع أطباق.(١)

والطبق من أدوات الطعام معروف، وهو من ذات مادة الطبق الذي هو غطاء كل شيء، حيث يوضع فيه الطعام فيغطيه كله أي يشمله؛ هو أيضا مأخوذ من المطابقة لأن الطعام إذا وضع فيه افترش عليه، فهو يطابقه.

وقد ورد في القرآن الكريم لفظ طبق وطباق أيضا إلا أن لفظ طباق جمعٌ ورد موافقا للمادة اللغوية من المطابقة بين الشيئين واستوائهما، وذلك في موضعين، في قوله تعالى: "الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ." [الملك :٣] أي مطابقة بعضها فوق بعض أو ذات طباق. (٢) جمع طبق، كل واحدة منها كأنها لشدة مطابقتها للأخرى طالبة بحيث يكون كل جزء منها مطابقا لجزء من الأخرى، ولا يكون جزء منها خارجا عن ذلك. (٣)

---

(١)اللسان: مادة طبق .

(٢) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز للرسعني: جـ٨ / ٢٠٠.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: جـ ٢٠ / ٢٢٣.

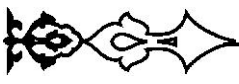

وكذا قوله تعالى: " أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا "[نوح : ١٥]

المعنى العام:

أي أن الله تعالى أبدع السموات السبع على الذي خلق وأوجد على غير مثال سابق وجعلهم طباقا أي بعضها فوق بعض في جو الهواء بلا عماد ولا علاق ولا رابط يربط بعضها ببعض مع اختصاص كل منها بحيز معين ونظم ثابتة لا تتغير.

التحليل البلاغي:

الطباق بمعنى بعضها فوق بعض تكون مستعملة في معناها الحقيقي من المطابقة والاستواء، فيخرج عما نحن بصدده من أدوات الطعام والشراب، وإن كان الذهن قد يتصور هذه المطابقة في السموات بعقد مشابهة بينها وبين مجموعة متماثلة من الأطباق مصفوف بعضها فوق بعض ليتمكن من تخيل هذا التطابق والاستواء من كل الجهات.

أما لفظ طبق بالإفراد فلم يرد إلا في موضع واحد هو قوله تعالى في سورة الانشقاق:

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ، وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ، وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ، لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ " [الآيات:١٦ إلى ١٩]

ويظهر فيه الاستعمال المجازي جليا مما دعا المفسرون إلى الاتفاق على وجود المجاز في هذا الموضع، ويبقى الاختلاف بينهم فقط في توجيه المعنى .

واستعمال المجاز فيه يأتي من ثلاثة مواضع :

الطبق ، والركوب ، وعن . يقول ابن عاشور: "وجملة "لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ " نسج نظمها نسجا مجملا لتوفير المعاني التي تذهب إليها أفهام السامعين، فجاءت على أبدع ما ينسج عليه الكلام الذي يرسل إرسال الأمثال من الكلام الجامع البديع النسج الوافر المعنى ولذلك كثرت تأويلات المفسرين لها .

فلمعاني الركوب المجازية، ولمعاني الطبق من حقيقي ومجازي متسع لما تفيده الآية من

المعاني، وذلك ما جعل لإيثار هذين اللفظين في هذه الآية خصوصية من أفنان الإعجاز القرآني. ويقارن اختلاف معاني اللفظين اختلاف معنى (عن) من مجاوزة وهو معنى حقيقي أو مرادفة كلمة بعد وهو معنى مجازي."[1]

ويرتبط توجيه معنى "طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ " بالمخاطب في "لَتَرْكَبُنَّ" وهي على ثلاثة توجيهات وهي: " لتركبن بفتح الباء خطابا للنبي – صلى الله عليه وسلم – أي لتركبن يا محمد حالا بعد حال أو سماء بعد سماء ودرجة بعد درجة ورتبة بعد رتبة في القربى من الله تعالى، وقال ابن مسعود: لتركبن السماء حالا بعد حال يعني حالتها التي وصفها الله تعالى بها من الانشقاق والطي وكونها مرة كالمهل ومرة كالدهان.

وقيل: الخطاب للإنسان أي لتركبن أيها الإنسان حالا بعد حال من كونك نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم حيا وميتا وغنيا وفقيرا، فالخطاب للإنسان المذكور في قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ " [الانشقاق: آية ٦] وهو اسم جنس ومعناه الناس.

وعلى قراءة لتركبن بضم الباء خطابا للناس ... أي لتركبن حالا بعد حال من شدائد القيامة، أو لتركبن سُنة من كان قبلكم من التكذيب والاختلاق على الأنبياء، وكله مراد، وقد جاءت بذلك الأحاديث."[2]

وقرئ أيضا " لتركبن بياء الغيبة وختم الباء على أن الخطاب للكفار لبيان توبيخهم بعده

(١) التحرير والتنوير جـ ٣٠ / ٢٢٧ .

(٢) جامع البيان للقرطبي جـ ١٩ / ٢٧٦ .

أي يركبون حالا بعد أخرى من المذلة والهوان في الدنيا والآخرة. "[1]

ولتركبن جواب القسم، والظاهر فيه أن الخطاب للناس لأن " الإنسان المتقدم اسم جنس بمعنى الناس، فعليه يعود الضمير في " لتركبن "، وقد تقدم ذكرهم في من أوتي كتابه، وتأخر ذكرهم في قوله فما لهم لا يؤمنون فلا يصرف الخبر عنهم في لتركبن إلى غيرهم إلا بدليل .

وذكر المفسرون أن المقصود بـ " طبقا عن طبق " هنا حالا بعد حال، والمعنى - والله أعلم - أن للأخرة أحوالا تتقلبون فيها إلى أن تلقوا جزاءكم كتقلبكم في أحوال الدنيا حتى تموتوا وتصلوا للأخرة، " فأول أطباق الإنسان جنين ثم وليد ثم رضيع ثم فطيم ثم يافع ثم رجل ثم شاب ثم كهل ثم شيخ ثم ميت وبعده نشر ثم حشر ثم حساب ثم وزن ثم صراط ثم مقر، ومثل هذه الأطباق المحسوسة أطباق معنوية من الفضائل والرذائل. "[2]

فعبر عن كل حالة تطرأ على الإنسان ويعايشها فترة بالطبق على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، والمعنى أن كل مرحلة تعرض للإنسان تغشاه وتغمره بأحداثها كشمول الغطاء للشيء وتلازمه فترة معايشتها فهي ملابسة له كملابسة الطبق لما طبق عليه، ولا يبعد هذا عن معنى الطبق الذي هو وعاء الطعام إذ كان مشتقا من هذا المعنى.

وجملة " لتركبن طبقا عن طبق " فيها استعارة تمثيلية، حيث شبهت حال تمكن وجود الإنسان في كل حالة وملابستها له بحال التمكن على الشيء بالركوب بجامع الهيئة

---

(١) البحر المحيط: جـ٨ / ٦٢٧ .

(٢) نظم الدرر :جـ ٢١ / ٣٤٨ .

الحاصلة من التمكن والتلبس في كل، ثم حذف المشبه وا ستعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه والقرينة حالية.

والتعبير كله كناية عن تقلب الحوال والانتقال من حال إلى حال أخرى حتى الوصول إلى المآل الأخير.

و" عن " هنا مرادفة لـ " بعد "[1] أي لتركبن طبقا عن أي طبق بعد طبق أي لتتقلبن في الأحوال حالة بعد حالة، ففيها استعارة كذلك، حيث شبه مطلق اللحوق والتتالي بمطلق الانفصال والمجاورة بجامع المغايرة والتعدد، فسرى التشبيه من المعنيين الكليين إلى جزئياتهما فاستعير لفظ (عن) من جزئيات المشبه به لـ (بعد)من جزئيات المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، إذ المقصود ما في دلالة الطبق على التجاور والانتقال منه إلى غيره، أي انتقال من حال إلى حال أخرى.

(١) ينظر حروف المعاني، حسن عباس :٦٩ ، والجنى الداني :٢٤٦ .

المبحث الحادي عشر

القـــدور

القدور: جمع القدر وهي " إناء يطبخ فيه "[١] معروفة أنثى، وتصغيرها قدير وقديرة بالهاء وغير الهاء."[٢] وقيل: هي إناء يوضع فيه الطعام ليطبخ من لحم وزيت وأدهان وتوابل."[٣]

وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في موضع واحد فقط وهو قوله تعالى:

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ [سبأ :١٣]

مفردات اللغة:[٤]

المعنى العام:[٥]

التحليل البلاغي:

وهذه القدور هي التي يطبخ فيها لجند سليمان وخدمه وأتباعه، والراسيات: جمع راسية من رسا الشيء إذا ثبت، وقدر راسية: لا تبرح مكانها ولا يطاق تحويلها،[٦]ولا يستطاع

---

(١) المعجم الوجيز: مادة قدر.

(٢) لسان العرب: مادة قدر.

(٣) التحرير والتنوير :جـ ٢٥ / ١٦٣ .

(٤) ينظر ص: ٣٥من البحث .

(٥) ينظر ص: ٣٥ من البحث.

(٦) لسان العرب: مادة رسا .

تحويلها لثقلها فهي في مكانها.[1]

والراسيات: الثابتات في الأرض لا تنزل من فوق أثافيها لتداول الطبخ منها صباح مساء[2] ولعظمها فلا تحرك عن أماكنها، وكان يصعد إليها بالسلالم، وكانت باليمن."[3]

وقيل: " ثابتات لها قوائم لا تحرك عن أماكنها، لعظمها، قال ابن جريح: ذكر لنا أن تلك القدور باليمن أبقاها الله تعالى آية وعبرة."[4] وقيل: معناه " ثابتات لكبرها ليست مما ينقل ولا يحمل ولا يستطيع عمله إلا الجن."[5]

فالراسيات وصف للقدور فيه معنى المبالغة وإن كان حقيقيا فهو معبر عن عظم حجمها وعزة وجود مثلها، لذا فهي ثابتات راسخات راسيات كالجبال، وتبلغ قيمة ذكرها هنا أنها وردت في سياق ضرب المثل بمن شكروا نعمة الله واتقوه، فأوتوا خير الدنيا والآخرة وسخرت لهم الخيرات مثل داود وسليمان -عليهما السلام – وهذا أيضا تعريض بالمشركين الذين كفروا نعمة الخالق وجعلهم شركاء بدلا من أن يشكروه – جل وعلا – بأن هناك في المقابل من يؤمنون بالله تعالى ويشكرون نعمته، ولهذا كان ختام الآيات "اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ"

وجملة " وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ " تذييل للحث على الاهتمام بالعمل الصالح والحرص على شكر الله حيث من يعبدون ويشكرون قليل.

---

(١) أساس البلاغة للزمخشري :٣٥٤ .

(٢) التحرير والتنوير: جـ ٢٥ / ١٦٣ .

(٣) حدائق الروح والريحان جـ ٢٣ / ٢٠٨ .

(٤) رموز الكنوز للرسعني :جـ ٦ / ٢٢٢ .

(٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية : ١٥٣١ .

المبحث الثاني عشر

القـــوارير

القوارير: جمع القارورة وهي واحدة القوارير من الزجاج، والعرب تسمى المرأة القارورة، وتكنى عنها بها، والقارورة: ما قر فيه الشراب وغيره، وقيل: لا يكون إلا من الزجاج خاصة، وقوله تعالى: " قوارير، قوارير من فضة " قال أهل العلم: معناه أواني زجاج في بياض الفضة وصفاء القوارير.(١)

ولم ترد القوارير مفردة في القرآن الكريم وإنما وردت بلفظ الجمع في موضعين، أولهما قوله تعالى:

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤]

والثاني في قوله تعالى:

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ ، قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان ١٥ ،١٦]

مفردات اللغة:

الصرح: بيت عال مزوق سمي بذلك اعتبارا لكونه صرحا عن الشوب أي خالصا(٢)حسبته لجة: ماء غمرا تخوضه(٣)، الممرد المكحول الأملس، ومنه الأمرد،

(١) ينظر اللسان: مادة قرر .

(٢) مفردات الراغب: مادة قرر .

(٣) عمدة التفاسير جـ ٢ / ٧٤٦ .

والشجرة المرداء التي لا ورق عليها.[1]

المعنى العام:

إن سليمان – عليه السلام – اتخذ قصرا عظيما منيفا من زجاج لملكة سبأ، ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله تعالى وجلالة ما هو فيه، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، فأسلمت لله – عز وجل –.

التحليل البلاغي:

ترى القوارير في الآية الأولى وصف لشيء حصل في الدنيا وهو الصرح الممرد في قصة سليمان – عليه السلام – وملكة سبأ، والقوارير في الآية الثانية وصف للأكواب التي يطاف بها على أصحاب الجنة في الآخرة، وهي في كلا الأمرين وردت وصفا على سبيل الحقيقة لما عز وجوده ولا يستطيع العقل البشري استيعابه أو حتى تخيله، ذلك أن قوارير في سورة النمل صفة ثانية للصرح والصرح هو " بيت واحد يبنى منفردا ضخما طويلا في السماء، وقيل: هو القصر أو كل بناء عال مرتفع أو هو صحن الدار وعرصتها."[2]وصفته الأولى أنه ممرد أي مثقول مملس ومستو أو بناء طويل عات.[3]

فهو صرح قد اتخذ من الزجاج الخالص، ومرد أي ملس به على فكرة كلما كان البلاط أملس مستويا كلما كان أجود وأبهى منظرا، ثم إنه من زجاج القوارير فهو شفاف يرى ما تحته لا سيما وقد صنعته الجن لسليمان – عليه السلام – فهو – والله أعلم – " ساحة معينة

(١) تفسير ابن عطية :١٤٢٣ .

(٢) اللسان: مادة صرح .

(٣) اللسان: مادة مرد .

للنزهة فرشت بزجاج شفاف وأجرى تحته الماء حتى يخاله الناظر لجة ماء."[1] لذا عندما رأته ملكة سبأ وأوشكت على عبوره توهمت الخوض فيه إذ كان تحته ماء فكشفت عن ساقيها صفة الذي يهم بالخوض في الماء، فإذا بسليمان – عليه السلام – يذكر لها حقيقته وهو أنه صرح ممرد من قوارير فلا تخشى البلل بالماء .

ووجه الوصف بالقوارير خاصة ؛ لشفافيتها ونقاء الزجاج المتخذة منه بحيث يرى ما خلفه بوضوح إذ لا تسمى آنية الشراب قارورة إلا إذا كان هذا حالها وكانت من زجاج نقي صاف شفاف يرى ما خلفه " فالقوارير جمع قارورة وهي اسم لإناء من الزجاج كانوا يجعلونه للخمر ليظهر للرائي ما قرّ في قعر الإناء من تفث الخمر فيظهر المقدار الصافي منها ... ثم أصبحت القوارير اسما من أسماء الزجاج."[2] فذكر القوارير و الوصف بها هنا يناسب المقام والغرض، إذ أراد سليمان – عليه السلام – أن يرى ملكة سبأ عظمة حضارته وأن يجعلها تشاهد أثرا بديعا من آثار صناعته أو ما صنع لأجله وهو الصرح لتعلم أن هذا ملك وسلطان أعز من ملكها وسلطانها فأدهشها ما رأت وتعجبت منه وعلمت أن مثل هذا لا يكون إلا لبني أيده الله بالمعجزات ومن ثم آمنت وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

فالقوارير لا تكون إلا من الزجاج وهي قوارير من فضة فكيف تكون أكواب من زجاج ومن فضة في آن واحد ولكل منهما خواصه التي لا تكون للثاني؟

" قال الشعبي: لها صفاء القوارير وبياض الفضة، وعن ابن عباس: أنه لو أخذت قطعة

(١) التحرير والتنوير جـ ١٩ / ٢٧٥ .

(٢) التحرير والتنوير جـ ١٩ / ٢٧٦ .

من فضة وجعلت في الرقة كجناح ذباب لم ير من داخله، وفضة الجنة يرى من داخلها، فهو في صفاء القوارير على هذا المعنى، وعنه أيضا أن القوارير في الدنيا أصلها من الرمل، فإذا كان أصلها من الفضة في الجنة فكيف تكون في الحسن والصفاء، وعنه أيضا أنه لا يشبهه شيء في الجنة شيئا في الدنيا، وإنما في الدنيا الأسامي مما في الجنة فحسب."[1]

فكما أنه لا نسبة بين هذين الأصلين، فكذا لا نسبة بين القارورتين أي التي من الرمل والتي من الفضة.

وظاهر الآية الكريمة وما عليه جل المفسرين أن تلك الأكواب متخذة من الفضة ولكن الخلاف في القوارير أهي مذكورة على التشبيه بها في الصفاء والشفافية لما بداخلها أو أنها هي عين الأكواب التي من الفضة !؟

والجواب أن الآية الكريمة إما أن يصرف التعبير فيها على الحقيقة، أو أن يكون مذكورا على سبيل التشبيه أو الاستعارة، والمفسرون في هذا على وجوه وآراء.

فهناك من رأى أنها أكواب مكونة من القوارير والفضة على الحقيقة، وتجمع بين خصائصهما بقدرة الله تعالى على أن لفظة كانت "من يكون في قوله كن فيكون " أي تكونت قوارير بتكوين الله تعالى تفخيما لتلك الخلقة العجيبة الشأن الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين ... فأصل القوارير في الدنيا الرمل وأصل قوارير الجنة هو فضة الجنة فكما أن الله تعالى قارد على أن يقلب الرمل الكثيف زجاجة صافية فكذلك هو قادر على أن يقلب فضة الجنة قارورة لطيفة، فالغرض من ذكر هذه الآية التنبيه على أن نسبة قارورة الجنة إلى قارورة الدنيا كنسبة فضة الجنة إلى رمل الدنيا، فكما أنه لا نسبة بين هذين

(١) تفسير القرآن للسمعاني: جـ ٦ / ١١٨ .

الأصلين فكذا بين القارورتين في الصفاء واللطافة ... قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء، وإذ كان كذلك فكمال الفضة في بقائها ونقائها وشرفها إلا أنه سريع الانكسار، فآنية الجنة آنية يحصل فيها من الفضة بقاؤها ونقاؤها وشرف جوهرها ومن القارورة صفاؤها وشفافيتها. "[1]

وهناك من صرف الأكواب في الآية إلى التشبيه بالقوارير في شفافيتها وبالفضة في بياضها وحسنها على أن المعنى " كانت كصفاء القوارير وبياض الفضة، فاجتمع فيها صفاء القوارير وبياض الفضة. "[2]

أي هي أكواب ليس أصلها الزجاج أو الفضة فلا هي من القوارير ولا هي من الفضة ولكنها من أصل آخر لا يعلمه إلا الله يجمع بين صفات القوارير والفضة أي شبهت الأكواب بهما كل في صفته المميزة له تشبيه الجمع .[3] حيث تعدد المشبه به (القوارير والفضة) من دون المشبه (الأكواب).

" فـ "كانت " تامة "وقوارير" الأول حال من فاعل كانت على المبالغة في التشبيه، وليس المعنى: أي أنها قوارير زجاجية متخذة من الفضة بل الحكم عليها بأنها قوارير وأنها من فضة من باب التشبيه البليغ، لأنها في نفسها ليست زجاجا ولا فضة. " [4]

وهو تشبيه بليغ بعيد لغرابته في الجمع بين الوصفين وبهذا يحقق الغرض منه وهو

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي: جـ ٣ / ٢٤٩ .

(٢) معاني القرآن للفراء: جـ ٣ / ٢١٧ .

(٣) هو أن يعدد المشبه به دون المشبه ، ينظر جواهر البلاغة للهاشمي : ٢٢٦.

(٤) حدائق الروح والريحان: جـ ٣٠ / ٤٩٤، ٤٩٥ .

الاشتياق لمثل هذا النعيم وطلبه بالعمل الذي يؤدي إليه.

ويرى الخطيب القزويني أن البليغ من التشبيه ما كان من هذا النوع أي البعيد " لغرابته ولأن الشيء إذا نيل بعد الطلب له والاشتياق إليه كان نيله أحلى وموقعه من النفس ألطف، وبالمسرة أولى.[1] ولهذا ضرب به المثل في الآية الكريمة .

وجعلها السيوطي استعارة حصلت في كلا اللفظين يقول: " قد تكون الاستعارة بلفظين نحو: قوارير من فضة يعني تلك الأواني ليست من الزجاج ولا من الفضة، بل في صفاء القارورة وبياض الفضة. "[2]

ولعله يقصد استعارة واحدة حاصلة من لفظين أي كانت أكواب على هيئة مخصوصة تشبه القوارير في صفائها وشفافية ما خلفها وتشبه الفضة في بياضها ولمعانها وحسن رونقها ثم حذف المشبه (الأكواب ذات الهيئة المخصوصة) وبقى المشبهين بهما على سبيل الاستعارة التصريحية.

ومن المفسرين من رأى أنها أكواب متخذة من الفضة لكنها فضة في صفاء القوارير فيكون التشبيه في القوارير فقط، " أراد بياض الفضة في صفاء القوارير، فهي من فضة في صفاء الزجاج، يرى ما في داخلها من خارجها. قال الكلبي: إن الله جعل قوارير كل قوم من تراب أرضهم، وإن أرض الجنة من فضة، فجعل منها قوارير يشربون بها. "[3]

فهي أكواب من فضة شبيهة بالقوارير في صفاء اللون والرقة " أي هي من جنس الفضة

(١) الإيضاح :١٩٨.

(٢) الإتقان في علوم القرآن :جـ ٤ / ١٥٥٢.

(٣) معالم التنزيل للبغوي: جـ / ٢٩٦ .

في لون القوارير لأن قوله من فضة حقيقية فإنه قال قبله: "بآنية من فضة."[1]

ومن المفسرين من أخرج القوارير في الآية عن فكرة التكوين من الزجاج وصرفها على معنى آخر يتناسب مع اتخاذ الأكواب من الفضة فأراد أنه " ليس المراد بالقوارير الزجاج، بل العرب تسمى ما استدار من الأواني التي تجعل فيها الأشربة مما رق وصفا قارورة، فالمعنى: وأكواب من فضة مستديرة صافية رقيقة."[2]

والذي يظهر لي – والله أعلم – أن الآية الكريمة تشير إلى حقيقة التعبير بما ورد فيها من القوارير والفضة، فهذه الأكواب هي قوارير زجاجية كشأن أكواب الشراب في عرف أهل الدنيا إلا أن زجاجها مصنوع أو مكون من الفضة لا من الرمل كما هو مألوف في صنع القوارير، فتبدو في هيئة مخصوصة جامعة بين شفافية الزجاج وبياض وحسن الفضة بكيفية لا يعلمها إلا الله تعالى، ولا يعلمها عيانا من الناس إلا من عمل صالحا مما يوجب الوصول إليها، وفي هذا مزيد من التشويق إلى نيلها والحث على العمل الموجب للحصول عليها، وهذا هو الغرض المطلوب من ذكرها والتفصيل فيها .

وتكرار لفظة " القوارير "فيه إطناب لتأكيد هذا الأصل الذي تكونت منه، فقوارير الأولى منصوبة على أنها " خبر كان أو أنها حال وكان تامة، أي كونت فكانت ... ومن فضة صفة لها."[3]

ولفظ قوارير الثاني يجوز أن يكون تأكيدا لفظيا لنظيره لزيادة تحقيق أن لها رقة الزجاج، أو

(١) التحرير والتنوير: جـ ٢٩ / ٣٩٣ .

(٢) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل :جـ ٢٠ / ٣٥ .

(٣) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل: جـ ٢٠ / ٣٤ .

أن يكون تكريرا لإفادة التصنيف، فإن حسن التنسيق في آنية الشراب من مكملات رونق مجلسه فيكون التكرير مثل قوله تعالى : " والملك صفا صفا " وقول الناس قرأت الكتاب بابا بابا. "[1]

ويجوز أن يكون بدلا من قوارير الأولى " قال بعضهم: لعل الوجه في اختيار كون " كانت " تامة مع إمكان جعلها ناقصة و" قوارير " الأولى خبر لها الإعظام بتكوين الله تعالى ، فيكون فيه تفخيم الآنية بكونها أثر قدرة الله تعالى، و" قوارير " الثانية بدل من الأولى على سبيل الإيضاح والتعيين، أي قوارير مخلوقة من فضة. "[2]

وحسن التكرير في "قوارير من فضة " ومن فضة صفة لقوارير الأولى " لما اتصل به من بيان أصلها، ولو كان التكرير لم يحسن أن يكون الأول رأس آية لشدة اتصال الصفة بالموصوف. "[3] وجملة " قدروها تقديرا " صفة لـ "قوارير " أي قدرها السقاة من الخدم الذين يطوفون عليهم على قدر ما يحتاج إليه الشاربون من أهل الجنة من دون زيادة ولا نقصان، أو أتو بها على قدر ريهم ... وذلك ألذ وأشهى، وقيل قدرها الملائكة، وقيل قدرها أهل الجنة الشاربون على مقدار شهواتهم وحاجتهم فجاءت كما يريدون في الشكل لا تزيد ولا تنقص. "[4]

ولعلك تلحظ هذا الجناس المشتق اللطيف بين قدروها وتقديرا وما يوحي به من أن

(١) التحرير والتنوير: جـ ٢٩ / ٣٩٣.

(٢) حدائق الروح والريحان: جـ ٣٠ / ٤٩٥.

(٣) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل: جـ ٢٠ / ٣٤.

(٤) حدائق الروح والريحان: جـ ٣٠ / ٤٩٦.

التقدير الفعلي الحاصل في الشراب بتلك الأكواب أتى مجانسا وموافقا لما عرض تقديره في أنفسهم بقدر شهوتهم ومزاجهم لا يزيد فيملوا ولا ينقص فلا يوف بمتعتهم .

وقيل هذا الجناس " يوهم أنه يعرض على السامع معنى مكررا أو لفظا مرددا لا يجني منه السامع غير التطويل والسآمة، فإذا هو يروع ويعجب، ويأتي بمعنى مستحب يغاير ما سبقه كل المغايرة، فتأخذ السامع الدهشة لتلك المفاجأة غير المتوقعة. " (١)

(١) البديع في ضوء أساليب القرآن، د عبد الفتاح لاشين : ١٧٠

المبحث الثالث عشر

الكأس

الكأس من أدوات المعيشة التي وردت في القرآن الكريم في أكثر من موضع، وهي في اللغة: "الزجاجة ما دام فيها شراب، وقال أبو حاتم: الكأس الشراب بعينه... والكأس الإناء أو الزجاجة إذا كان فيها خمر فإذا لم يكن فيها خمر فهي قدح، وكل هذا مؤنث ... وقيل هو اسم لهما على الانفراد والاجتماع، ويستعار الكأس في جميع ضروب المكاره، كقولهم: سقاه كأسا من الذل، وكأسا من الحب والفرقة والموت."(١)

وقد وردت في القرآن الكريم في خمسة مواضع انتظمت جميعا في سياق تعداد نعيم الآخرة الحاصل في الجنات التي أعدت جزاء لمن رضي الله عنهم من عباده الصالحين، وتميزت بعضها عن بعض بما نعتت به من وصف خاص في كل موضع.

الموضع الأول: فهي في سورة الصافات من معين بيضاء لذة للشاربين لا غول فيها ولاهم عنها ينزفون. قال الله تعالى:

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ، أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ، فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ، يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ، بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ [الآية ٤٠ إلى الآية ٤٧]

الموضع الثاني: في سورة الطور كأس لا لغو فيها ولا تأثيم، قال تعالى:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ۙ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۚ كُلُوا

(١)اللسان: مادة كأس .

وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الآية: ١٧ إلى الآية:٢٣]

الموضع الثالث: في سورة الواقعة هي كأس من معين لا يصدعون عنها ولا هم ينزفون. يقول تعالى:﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ، عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ، مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ، لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾ [الآية: ١٠ إلى الآية : ١٩]

الموضع الرابع: في سورة الإنسان هي كأس كان مزاجها كافورا، وزنجبيلا. قال تعالى:﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا."[آية :]٥ "وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ، عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴾ [آية :١٨،١٧]

الموضع الخامس: في سورة النبأ هي كأس دهاق . قال تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ، حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ، وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ، وَكَأْسًا دِهَاقًا ، لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ، جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ [النبأ الآية : ٣١ إلى الآية ٣٦]

والكأس في المواضع الأربعة الأولى مستعملة على سبيل المجاز المرسل لعلاقة المحلية حيث ذكر المحل (الكأس) وأراد الحال فيها (الخمر) بدليل ما أتى بعدها من أوصاف هي للخمر، ولأنه أفرد الكأس مع أن المطوف عليهم كثيرون.

أما الموضع الأخير من سورة النبأ، فالكأس مستعملة فيها على الحقيقة، وإن قصد بها الدلالة على الخمر أيضا حيث إن " دهاقا بمعنى مملوءة من أدهن الكأس شدّ ملأها،

وكأس دهاق: مترعة ممتلئة ... ويقال معنى دهاقا متتابعة على شاربها من الدهق الذي هو متابعة الشد، وقيل دهاقا أي صافية."[1]ويتضح من هذا أنه وصف للكأس ذاتها.

ثم إن لكل موضع خصوصية تفصيل:

ففي سورة الصافات يقول تعالى:﴿ إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ، أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ، فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ، يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ، بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ [الآية ٤٠ إلى الآية ٤٧]

مفردات اللغة:

معين: من قولهم معن الماء: جرى، فهو معين، وقيل : ماء معين هم من العين والميم زائدة فيه.[2] بيضاء: أي لونها أبيض " على نحو الابيضاض ويقال لمن لم يتدنس بمعاب: هو أبيض الوجه."[3] مخلصين:" الخالص: الصافي إلا أن الخالص هو ما زال عن شوبه بعد أن كان فيه، والصافي قد يكون لما لا شوب فيه ...فحقيقة الإخلاص: التبري عن كل ما دون الله تعالى."[4]غول: الغول إهلاك الشيء من حيث لا يُحَسَّ به.[5] ينزفون: من قولهم أنزفوا: إذا نزف شرابهم أو نزعت عقولهم.[6]

(١) اللسان: مادة دهق .

(٢) مفردات الراغب: مادة معن .

(٣) مفردات الراغب: مادة بيض .

(٤) مفردات الراغب: مادة خلص .

(٥) السابق مادة : غول .

(٦) السابق مادة : نزف .

المعنى العام:

إن عباد الله الذين أخلصوا له العمل وأنابوا إليه لهم جنات يتمتعون منها بكل ما لذ وطاب فواكه تأتيهم وهم مكرمون، جالسين على سرر متقابلين، ليأنس بعضهم ببعض، ويطاف عليهم بكأس من الخمر لونها مشرق حسن بهي، لذيذة الطعم، ليس منها شيء من أنواع مفاسد خمر الدنيا فهي الدنيا فهي لا تحدث صداعا ولا سكرا مما هو لازم خمور الدنيا.

التحليل البلاغي:

وردت الكأس في سياق بيان جزاء عباد الله المخلصين، ولأنهم مخلصون في عبادتها فهم مكرمون في جزائهم، فاقتضى الوصف بيان خلوص النعيم لهم من أي شيء يشوبه أو يكدره عليهم وكمال تكريمهم على النحو الذي يجانس إخلاصهم في العبادة دون عمل سيء يكدرها.

فرزقهم معلوم أي مقدر خالصا لهم لا يكون لغيرهم، وهم على درجة من الكرامة خالصة لا تكون لغيرهم " وفواكه بدل من رزق، وهي ما يتلذذ به ولا يتقوت لحفظ الصحة."[1] وهم في جنات النعيم لا جنة واحدة كما يكون لغيرهم، قال ابن عباس: الجنان السبع؛ دار الجلال ودار السلام، وجنة عدن، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة الفردوس، وجنة النعيم."[2] على سرر متقابلين وهو ما يقتضيه التكريم، فهم يخدمون وهم على أسرتهم " وبعضهم يقابل بعضا ولا ينظر بعضهم في قفا بعض."[3]

ومن خلوص النعيم والخدمة لهم أن يطاف عليهم بكأس من خمر جارية ظاهرة لعينهم

---

(١) البحر المحيط: جـ ٧ / ٤٧٧ .

(٢) القرطبي جـ ٨/ ٣٢٩ .

(٣) جامع البيان للطبري جـ ٦ / ٣٠٣ .

لامتداد اللذة والتمتع والإمعان فيها فمن شأن اشتهاء الشيء والتلذذ بالنظر إليه حدوث قمة التلذذ حيث الحصول عليه.

وهي خمر بيضاء " قال الحسن: خمر الجنة أشد بياضا من اللبن ... وقيل بيضاء أي لم يعتصرها الرجال بأقدامهم."[1] و" الخمر البيضاء لم تُر في الدنيا، ولن ترى، وهذا من جملة مالا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر."[2]

وهي لذة للشاربين أي لذيذة لكل من يشرب منها " ووصفها بلذة – الذي هو مصدر – إما للمبالغة أي كأس لذيذة عذبة شهية صارت في لذتها كأنها نفس اللذة، أو أنها تأنيث اللذ بمعنى اللذيذ، وصفها باللذة بيانا لمخالفتها لخمور الدنيا لانقطاع اللذة من خمور الدنيا كلها رأسا بالكلية."[3] أو على حذف مضاف أي ذات لذة."[4] ثم زاد في مدحها، وامتيازها عن خمر الدنيا فقال: " لا فيها غول " ولفظ غول يشمل جميع أنواع المفاسد الناشئة من شرب الخمر، فينتفي جميعها من صداع وسكر ومغص وخمار."[5]

ثم وصفها بـ " ولاهم عنها ينزفون " أي لا يصيبهم السكر منها كما يحدث مع خمور الدنيا " من نزف الرجل وأنزف إذا ذهب عقله من السكر."[6]

ثم أفرد هذا بالنفي مع اندراجه فيما قبله من نفي الغول عنها لما أنه من أعظم مفاسد

(١) القرطبي جـ ١٥/ ٧٨.

(٢) حدائق الروح والريحان جـ ٢٤ / ١٦٦ .

(٣) السابق: جـ ٢٤ / ١٦٦ .

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج جـ ٤ / ٣٠٣ .

(٥) حدائق الروح والريحان جـ ٢٤ / ١٦٧ .

(٦) اللسان: مادة نزف .

الخمر، كأنه جنس برأسه. [1]" وإنما صرف الله السكر عن أهل الجنة لئلا ينقطع الالتذاذ عنهم بنعيمهم."[2]

وترى الكأس قد وصفت في سورة الصافات خاصة بعدة أوصاف لم توصف بها جميعها في المواضع الأخرى التي ذكرت فيها من القرآن الكريم ؛ ذلك لبيان خلوصها في النعيم ضمن سياق ألوان النعيم الأخرى، لتقابل خلوص عباد الله في عبادتهم .

" فذكر أولا الرزق، وهو ما يتلذذ به الأجسام، وثانيا الإكرام، وهو ما تتلذذ به النفوس، ثم ذكر المحل الذي هم فيه، وهو جنات النعيم ثم أشرف المحل، هو السرر، ثم لذة التآنس بأن بعضهم يقابل بعضا وهو أتم السرور وآنسه، ثم المشروب وأنهم لا يتناولون ذلك بأنفسهم بل يطاف عليهم بالكؤوس، ثم وصف ما يطاف عليهم به من الطيب وانتفاء المفاسد، ثم ذكر تمام اللذة الجسمانية، وختم بها كما بدأ باللذة الجسمانية من الرزق وهي أبلغ الملاذ وهي التآنس بالنساء."[3]

وتقديم المسند (الجار والمجرور) على المسند إليه (غول) ورد في مقام النفي " فأفاد الاختصاص مع التفضيل على معنى أن خمور الجنة لا تغتال العقول ولا تصدع الرؤوس بينما خمور الدنيا تفعل ذلك."[4] لذا فهي تفضل خمور الدنيا وهو من قصر القلب.

ووقوع غول نكرة بعد لا النافية " أفاد انتفاء هذا الجنس من أصله."[5]

---

(٢) القرطبي جـ ١٥ / ٨٠ .

(٣)البحر المحيط جـ ٧ / ٤٧٧ .

(٤)دراسات بلاغية في القرآن والحديث د عبد الفتاح لاشين : ٨٣ .

(٥)التحرير والتنوير جـ ٢٣ / ١١٣ .

أما جملة " ولا هم عنها ينزفون " فقد التزم الترتيب فيها بأن قدم المسند إليه على المسند فلم يتقدم فيها الجار والمجرور ليفيد " تخصيص المسند إليه بالخبر الفعلي أي بخلاف شاربي الخمر من أهل الدنيا.[1] فهم ينزفون أي يسكرون منها .

وفي وصف الخمر بالمعين معنى الديمومة واستمرارية الجريان ولما كانت خمر الدنيا توصف بالانقطاع وشاربها يطلب الزيادة كلما أنهى كأسه، فقد طمأن الله تعالى أهل الجنة بأن خمرهم وشربهم جارٍ لا ينقطع .

وفي سورة الطور يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ۙ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۚ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۚ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۚ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الآية: ١٧ إلى الآية:٢٣]

مفردات اللغة:

ألتناهم:نقصناهم من الألت وهو النقص.[2]يتنازعون: يتعاطون ويتداولون من "المنازعة وهي المجاذبة والنزوع: الاشتياق الشديد وشراب طيب المنزعة أي المقطع إذا شرب."[3] لغو: اللغو من الكلام مالا يعتد به، وهو الذي لا يورد لا عن روية وفكر فيجري مجرى اللغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور، وقد يسمى كل كلام قبيح

(١)التحرير والتنوير جـ ٢٣ / ١١٤ .

(٢) اللسان: مادة : ألت .

(٣) مفردات الراغب: مادة نزع .

لغوا.[1] تأثيم مصدر أثم من الإثم وهو الذنب وهو أن يعمل ما لا يحل له.[2]

المعنى العام:

إن المؤمنين إذا اتبعتهم ذريتهم في الإيمان يُلحقهم الله بآبائهم في المنزلة فضلا منه وكرما، وإن لم يبلغوا بأعمالهم منزلتهم ليكمل بهم فرحهم وحبورهم وما نقص الله من عملهم شيئا بأن أعطى بعض مثوباتهم لأبنائهم، بل كل امريء مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أبا أو ابنا، وإنما كان رفع منزلة الأبناء تفضلا من الله وإحساناً وزادهم الله على ما كان لهم من النعيم بصنوف كثيرة متنوعة من ألوان الفاكهة والطعام مما يشتهونها ويستطيبونها، وبعد أن ذكر طعامهم أردفه بذكر شرابهم وسرورهم حال احتسائهم له، فقال: يتنازعون فيها كأسا أي يتعاطون ويتناولون في الجنة كؤوسا من الخمر ويتجاذبونها هم وجلساؤهم فيما بينهم لشدة سرورهم ولا يصدر منهم جراء شرب الخمر باطلا ولا ساقطا من الكلام، ولا يفعلون ما يأثمون به كما هو الحال في شرب الخمر في الدنيا .

التحليل البلاغي:

ذكرت الكأس في سياق بيان جزاء المؤمنين وإحسان الله إليهم في النعيم وإلى ذريتهم التي اتبعتهم وإن لم تصل إلى درجة أعمالهم بأن جعلهم معهم في الجنات يشاركونهم في النعيم تكريما لآبائهم المؤمنين الصالحين؛ لتقر أعينهم بهم زيادة فوق النعيم المعد لهم .

وكان ضمن النعيم ما يتنعمون به أنهم "يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ. " أي

(١) مفردات الراغب: مادة لغا .

(٢) اللسان: مادة أثم.

" يتعاطون "[1]قال الأخطل:[2]

نازعتُه طيب الراح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة الساري

فقوله : " نازعته طيب الراح " أي ناولته كؤوس الخمر وناولنيها.[3]أو يتنازعون: يتجاذبون مجاذبة ملاعبة، إذ أهل الدنيا لهم في ذلك لذة، وكذلك في الجنة.[4]

واللغو : السقط وما لا يعتد به من كلام وغيره، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع[5] كما يجري بين شاربي الخمر في الدنيا .

والتأثيم : يجوز أن يكون مصدر أثم ، قال ابن سيده : ولم أسمع به، ويجوز أن يكون اسما كما ذهب به سيبويه في التنبيت والتمتين، وقال أمية بن أبي الصلت:[6]

فلا لغو ولا تأثيم فيها وما فاهوا به لهم مقيم

والمقصود نفي ما يترتب على شرب الخمر من الإثم الذي يلحق شارب الخمر في الدنيا،

(١) ينظر اللسان: مادة نزع .

(٢) ديوان الأخطل : ١٤٢ .

(٣) أضواء البيان للشنقيطي: جـ ٧ / ٧٣٠ .

(٤) ينظر البحر المحيط :جـ ٨ / ٢١٢ .

(٥) اللسان: مادة لغا .

(٦) ديوان أمية بن أبي الصلت : ٦٩ ، وصحيح البيت:

ولا لغو ولا تأثيم فيها ولا غول ولا فيها مليم

وينظر اللسان: مادة أثم .

فالتأثيم تفعيل من الإثم أي تلك الكأس لا تجعلهم آثمين لأنه مباح لهم.(١)

وقد اختصت آية سورة الطور بذكر لفظة " يتنازعون " مقرونة بالكأس من دون باقي الآيات التي وردت فيها الكأس بالسور الأخرى؛ ذلك أن المقام هنا يناسبه الفعل (يتنازعون) أي يتعاطون بمعنى يتناول بعضهم بعضا، لأنه وصف لحال المؤمنين مع ذرياتهم التي ألحقت بهم في الجزاء، لإدخال مزيدا من السرور عليهم بالأنس مع ذرياتهم وقرِّ عينهم بهم – حتى وإن لم يكونوا على قدر إيمان آبائهم – منحة وتكريما لهم.

وبهذا التنازع والتعاطي بالتناول فيما بينهم يحصل السرور واللذة الزائدة بنشوة الخمر والمنادمة على شربها فتتم سعادتهم كما وعد رب العزة – جل وعلا –

والتنازع : التخاصم، وتنازع القوم: اختصموا، وبينهم نزاعة أي خصومة في حق وأصله من المنازعة أي المجاذبة في الأعيان والمعاني، والمنازعة في الخصومة مجاذبة الحجج فيما يتنازع فيه الخصمان، ومنه أخذت منازعة الكأس: أي معاطاتها، فقوله تعالى :"يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ." أي يتعاطون، والأصل فيه يتجاذبون."(٢)

وفي الآية الكريمة وردت " يتنازعون " تفاعل من التنازع الذي أصله المنازعة بمعنى المجاذبة مجازا على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، حيث شبه تناول كؤوس الخمر وتداولها بين المؤمنين وذراريهم في الجنة بالتنازع الذي هو المجاذبة والشد التي تكون في النزاع والخصومة بجامع قوة التفاعل بين المعاطاة والأخذ أي أن بعضهم يصب لبعض الخمر ويناوله إيثارا وكرامة، فيأخذ منه الآخر فرحا بما أعطاه له، ثم حذف المشبه وأقيم

(١) تفسير القرطبي :جـ ١٧ / ٦٩ .

(٢) اللسان: مادة نزع .

المشبه به مقامه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية في يتنازعون .

فيتنازعون بمعنى يتجاذبون تجاذب ملاعبة، إذ أهل الدنيا لهم في ذلك لذة، وكذلك في الجنة.(١)

ويتقارب السياق القرآني المتضمن لذكر الكأس في سورة الصافات مع سورة الواقعة حيث اشتمل سياق سورة الواقعة على وصف الكأس بالمعين كذلك أنها لاتصدع الرؤوس ولا تسكر العقول، ذلك أنها مذكورة في شأن جزاء السابقين، وهم النخبة المقربون من الله تعالى، فربما هم في ذات المنزلة والدرجة مع المخلصين أو قريبين منها، فكان لهم بعض ما للمخلصين من النعيم.

وقد وردت الكأس في سورة الواقعة مع عُدِّة الشراب كاملة إذ يقول تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ، عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ، مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ،لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَاوَلَا يُنْزِفُونَ ﴾[الآية:١٠ إلى الآية:١٩]

مفردات اللغة:

ثلة:جماعة، وأصلها من " الثلة: قطعة مجتمعة من الصوف"(٢) سرر موضونة: منسوجة متداخلة كصفة الدرع، من الوضن وهو نسج الدرع ويستعار لكل نسج محكم "(٣)

المعنى العام:

يصف سبحانه وتعالى ما أعد من النعيم للسابقين المقربين من أنهم على سرر منسوجة

(١) البحر المحيط جـ ٨ / ٢١٢ .

(٢)مفردات الراغب: مادة ثل.

(٣)حدائق الروح والريحان جـ ٢٨ / ٣٧٨ ومفردات الراغب مادة وضن : ٨٧٤ .

متداخلة النسج في بعضها على هيئة فاخرة، متكئين عليها متقابلين مع نظرائهم، ويطوف عليهم ولدان الجنة المخلدون بصنوف آنية الشراب من الأكواب والأباريق وكؤوس الخمر التي لا تصدع الرؤوس ولا تذهب العقول بالسكر كما تفعل خمر الدنيا، فهي في غاية الترف والنعيم .

التحليل البلاغي:

المراد هنا وصف حال السابقين المقربين من الله تعالى في تقلبهم في النعيم وأثر ذلك النعيم عليهم أنفسهم، بخلاف سورة الصافات التي برز المقصود فيها بيان صفة التكريم للمخلصين، فأتى السياق فيه تفصيل لكل ما هو خالص من الأوصاف، ليكون الجزاء من جنس العمل، لذا ورد سياق وصف الكأس في الصافات والمقصود ما فيها من الخمر بنفي الغول والنزف، وفي الواقعة بنفي الصداع والنزف، ولما كان الغول أعم من الصداع إذ يشتمل عليه وعلى غيره مما يلم بالرأس والجسد كافة ناسب مجيئه في سياق جزاء المخلصين، ليكون شرابا خالصا من أي فساد يحصل للرأس أو البدن عامة، أما سياق سورة الواقعة لم يحتج لذلك نفي مشابهة خمر الجنة لخمر الدنيا فحسب لأن المراد بيان كيفية نعيم المقربين .

وجاءت الكأس مفردة مع جمع الأكواب والأباريق " على عادة العرب في الشرب يكون عندهم أوان كثيرة فيها الخمر معدة موضوعة عندهم، أما الكأس فهو القدح الذي يشرب به الخمر إذ كان فيه الخمر ولا يشرب واحد في زمان واحد إلا وكأس واحد، وأما أواني الخمر المملوءة، منها في زمان واحد فتوجد كثيرا"[1]

(١) تفسير الرازي جـ ٢٩ / ١٥١ .

كما أن الأباريق والأكواب قد تتنوع مع كل مفرد منها الأشربة، فهذا إبريق ماء وهذا إبريق خمر وهذا إبريق لبن ...إلخ وكذا الأكواب، أما الكأس فلا إذ كان ما فيها نوع واحد لأنها ترتبط بما فيها من شراب الخمر خاصة، أما إناء شرب غير الخمر فيقال له قدح .

"وفي تأخير الكأس حسن ترتيب ذكري إذا كان الكوب منه يصب الشراب في الإبريق ومن الإبريق للكأس."[1]

ومثل هذا التقديم والتأخير يسمى تقديم ذكري وهو الذي " يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك ولو أخر لم يتغير المعنى. "[2]

وفي استعمال حرف الجر (عن) بدلا من (من) أو الباء في كلا السورتين يعني نفي حدوث فعل الصداع أو النزف نهائيا؛ لأن (عن) تعني المجاوزة[3] والانفصال، وسماها المالقي المزايلة[4]، فكأنه قيل لا يصيبهم الصداع ولا النزف أبدا لا منها ولا من غيرها، فعنها تعني منها فضلا عن تجاوزه لغيرها .

فكان معنى التجاوز الذي في (عن) أكثر توافقا وتطابقا مع حال الشرب في الجنة وأوفى للغرض من أن تكون (عن) مرادفة لـ (من) أو (الباء)، حيث اشتملت على معنى زائد عن معناهما، وهو نفي حصول الصداع أو النزف من أصله.

وسياق سورة الواقعة فيه إيجاز بحذف متعلق ينزفون وهو (عنها)؛ لدلالة متعلق لا

(١) ا) تفسير الرازي جـ ٢٩ / ١٥١.

(٢) البلاغة العالية، عبد المتعال الصعيدي: ٨١.

(٣) الجنى الداني: ٢٤٥.

(٤) ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي :٣٦٧

يصدعون عليه.

وفي سورة الإنسان يقول المولى تعالى:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا."[آية: ٥] "وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا، عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ [آية :١٨،١٧]

مفردات اللغة:

مزاجها: مزج الشراب خلطه، والمزاج ما يمزج به.(١)كافورا : الكافور أخلاط تجمع من الطيب تركب من كافور الطلع، وقيل هي عين في الجنة.(٢) زنجبيلا : نبات ذو عروق تسري في الأرض، وليس بشجر يؤكل رطبا ويستعمل يابسا، وقيل: الزنجبيل العود الحريف الذي يحذى الأسنان، والعرب تصف الزنجبيل بالطيب، وهو مستطاب عندهم جدا.(٣)

المعنى العام:

إن الذين بروا بطاعتهم ربهم واجتنبوا معاصيه يشربون من الخمر كان مزاج ما فيها من الشراب كالكافور طيب الرائحة وبردا وبياضا، وأخرى ممزوجة بماء يشبه الزنجبيل في الطعم، وكان الشراب الممزوج به أطيب ما يستطيب العرب، وألذ ما تستلذ به؛ لأنه يحذو اللسان، ويهضم الطعام.

التحليل البلاغي:

فالكأس هنا كان مزاجها كافورا وزنجبيلا ، وهذا ما يرجح أن تكون في موضع المجاز

(١) مفردات الراغب: مادة مزج.

(٢) اللسان: مادة كفر .

(٣) اللسان: مادة زنجبيل.

المرسل لعلاقة المحلية، لأن الضمير في مزاجها للكأس وهو مؤنث والكأس يرجع إليها بالتأنيث، حيث ذكر الكأس وأريد الخمر الذي بداخل الكأس إذ المزج والخلط لا يكون إلا للخمر فهو قرينة تمنع من إرادة المعنى الحقيقي للكأس، وهذا ظاهر بما لا يدع مجالا للشك في الكأس الثانية " يسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا " حيث تعدى الفعل إليها مباشرة؛ لاستحالة سقياهم الكأس ذاتها وإنما المراد ما بها من الشراب، أما الآية الأولى فقد عدى الفعل فيها " يشربون "بمن، " فيجوز أن يراد هنا آنية الخمر فتكون (من) لابتداء الغاية، وإفراد الكأس للنوعية، ويجوز أن تراد الخمر فتكون (من) للتبعيض، وعلى التقديرين فكأس مراد به الجنس وتنوينه لتعظيمه في نوعه."[1]

والمعنى: يشربون خمرا من كأس أو من إناء فيه الخمر ولا مانع من أن يكون من المجاز المرسل كذلك، يؤيده قول "ابن عباس ومقاتل: يريد الخمر "[2] أي أنه عبر بالكأس وأراد الخمر حيث جعل الكأس لا يذكر إلا وفيه الشراب، فإذا لم يكن فيه شراب لم يسم كأسا، والضمير في مزاجها راجع إلى الكأس وهذا مما يؤيد المجاز فيها، لأن المزاج ما يمزج به غيره أي يخلط ، ومستحيل الخلط للكأس ذاتها وإنما للشراب الذي بداخل الكأس " تسمية للحال باسم المحل ، ومن للتبعيض أو للمجاورة كما ذكره القاسمي"[3] " وكانوا يمزجون الخمر بالماء إذا كانت الخمر معتقة شديدة ليخففوا من حدتها وقد ورد ذكر مزج

(١) ينظر التحرير والتنوير: جـ ٢٩ / ٣٨٠.

(٢) تفسير الرازي :جـ ٣ / ٢٤.

(٣) مهذب تفسير الجلالين : ٥٨٢ ، وتفسير الشربيني: جـ ٤/ ٤٣٢ والقاسمي : ٦٠

الخمر في أشعار العرب كثيرا."[1] قال حسان:[2]

كأن سبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء

واختص المزج هنا بالكافور لبرده وعذوبته وطيب عَرفه وذكر فعل الكون (كان) يدل على أن له في المزج شأنا عظيما يكون فيه كأنه من نفس الجبلة لا كما يعهد .[3]أي أن هذا الكافور "في غاية اللذة قد سلم من كل مكدر ومنغص موجود في كافور الدنيا فإن الآفة الموجودة في الدنيا تعدم من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة."[4]

وقيل فيه ثلاثة أقوال: أحدها أنه الكافور المعروف والمراد به برده، قاله الحسن، أو ريحه قاله قتادة، أو طعمه قاله السدي. والثاني أنه اسم عين في الجنة قاله عطاء وابن السائب . والثالث أن المعنى: مزاجها كالكافور الطيب ريحه، أجازه الفراء والزجاج .[5]

أي على التشبيه بالكافور، وقيل:" اسم ماء في الجنة يشبه الكافور في رائحته وبياضه، وقيل يخلق الله فيها كيفيات الكافور فتكون كالممزوجة به.[6] وعن قتادة تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك، وقيل تخلق فيها رائحة الكافور وبياضه وبرده فكأنها مزجت بالكافور.[7]

(١) التحرير والتنوير: جـ ٢٩ / ٣٨٠ .

(٢) ديوان حسان بن ثابت :٣ .

(٣) تفسير الشربيني: جـ ٤ / ٤٣٢ .

(٤) تيسير الرحمن تفسير كلام المنان : ١٩١٧ .

(٥) زاد المسير في علم التفسير : ١٤٩٧ .

(٦) تفسير البيضاوي: جـ ٥ / ٢٧٠ .

(٧) تفسير أبو السعود :جـ ٥ / ٤٣٥ .

وكذا يكون المزاج للكأس في الآية الثانية من ذات السورة في قوله تعالى :"وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ."

" فالعرب كانوا يحبون جعل الزنجبيل في المشروب؛ لأنه يحدث فيه ضربا من اللذع، فلما كان كذلك وصف الله شراب أهل الجنة بذلك، ولابد وأن تكون في الطيب على أقصى الوجوه، قال ابن عباس: وكل ما ذكره الله تعالى في القرآن مما في الجنة فليس منه في الدنيا إلا الاسم."[1]

أو أن المعنى ما يشبه الزنجبيل في الطعم، وكان الشراب الممزوج به أطيب ما تستطيبه العرب وألذ ما تستلذ به،[2] وعينا بدل من زنجبيل، وقيل تمزج كأسهم بالزنجبيل بعينه أو يخلق الله تعالى طعمه منها، فعينا حينئذ بدل من (كأس)كأنه قيل ويسقون فيها كأس كأس عين أو نصب على الاختصاص، وتسمى سلسبيلا لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها، يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل، ولذلك حكم بزيادة الباء، والمراد بيان أنها في طعم الزنجبيل وليس فيها لذعة بل نقيض اللذع وهو السلاسة.[3]

وقد أشار ابن كثير أن الضمير في (فيها) "من يسقون فيها " يعود إلى الأكواب وعليه لا ينصرف المعنى المراد بالكأس إلا للخمر، لذا فسر كأسا بـ خمرا،[4] لا غير.

وقد بدا تكرار الكأس ومزجها مرتين إلا أن الأمر ليس كذلك لأن " الثانية غير الأولى،

(١) تفسير الرازي: جـ ٣٠ / ٢٥٠ .

(٢) ومنه قول المسيب بن علس يصف فم امرأة :

فكأن طعم الزنجبيل به إذ ذقته وسلافة الخمر ينظر ديوان المسيب بن علس : ٨٣ .

(٣) تفسير أبو السعود: جـ ٥ / ٤٣٨، ٤٣٩ .

(٤) ينظر عمدة التفاسير لابن كثير : ٦١٨ .

وقيل: كافورا اسم علم لذلك الماء، واسم الثاني: زنجبيل، وقيل سلسبيلا."[1]، " أشار بالأولى إلى برودتها وطيبها، والثانية إلى طعمها ولذتها لأن العرب كانت تستطيب الشراب البارد، وتستلذ طعم الزنجبيل."[2]

ثم إن المناسبة في السياقين مختلفة، فالأولى وردت في سياق الاستئناف البياني في موضع الفصل بأنه " لما أوجز في جزاء الكافر، أتبعه جزاء الشاكر فأطنب فيه؛ تأكيدا للترغيب ، فإن النفوس بعد كسر الوعيد لها تهتز لأدنى وعد وأقله، فكيف بأتمه وأجله، فقال مستأنفا مؤكدا لتكذيب الكافر مبينا بذكر الخمر على هذه الصفة أنهم في منتهى ما يكون من رغد العيش؛ لأنه يلزم من شربها جميع مقدماتها ومتمماتها : "إن الأبرار " بخصوصهم من عموم الشاكرين."[3]

ولما كان الدوران بالآنية متجددا وخص من الآنية الأكواب والطواف بها للشراب"أتبعها غايتها فقال تخصيصا بالعطف على ما تقديره : يسقون فيها ما تشتهي أنفسهم وتلذ أعينهم ويسقون ممن أرادوه من خدمهم الذين لا يحصون كثرة فيها أي الجنة، أو تلك الأكواب،(كأسا) أي خمرا في إناء (كان مزاجها) على غاية الإحكام (زنجبيلا) هو في غاية اللذة؛ وكانت العرب تستلذ الشراب الممزوج به لهضمه وتطيبه الطعم والنكهة."[4]

وقد جاء مزج شرابهم ببرودة الكافور، وطيب النكهة ولذة الطعم في الزنجبيل في مقابلة

---

(١) أسرار التكرار للكرماني : ٢٤٤ .

(٢) كشف المعاني في المتشابه من المثاني : ٣٧٠ .

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: جـ ٢١ / ١٣٦ ،١٣٥

(٤) السابق :١٤٦ .

ما وصفوا به من حرارة الخوف والإيثار في الدنيا، ومثله ما جاء من جزائهم بسعة الجنة ونعومة الحرير في مقابلة الحبس وضيق الدنيا وخشونة العيش وحبس النفس عن شهواتها تحقيقا لمنتهى أو لخلوص الراحة في الآخرة بعد طول الجهد والتعب في الدنيا .

أما في سورة النبأ حيث يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ، حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ، وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ، وَكَأْسًا دِهَاقًا ، لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ، جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ [النبأ الآية : ٣١ إلى الآية ٣٦]

مفردات اللغة:

كواعب: جمع كاعب، وامرأة كاعب أي تكعب ثديها.(١) أترابا :أي لدات، تنشأ معا تشبيها في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر، وقيل لأنهن في حال الصبا يلعبن بالتراب معا.(٢) دهاقا: مفعمة.(٣)

المعنى العام:

إن من اتقى محارم الله، وخاف عقابه فقد فاز بالكرامة والثواب العظيم كالبساتين المليئة بمختلف الأشجار والأعناب، والحور الكواعب التي لم تتدلى أثدائهن المستويات في سن الشباب، والكؤوس المفعمة بالخمر والشراب وما يصحب ذلك من نعيم وتلذذ لم يعهدا من قبل.

التحليل البلاغي:

الكأس المذكورة هنا على حقيقتها باعتبارها نوعا من الآنية الحاملة للشراب يدل على

(١) مفردات الراغب: مادة كعب.

(٢) مفردات الراغب: مادة ترب.

(٣) مفردات الراغب: مادة دهق .

ذلك وصفها بـ (دهاقا) أي ممتلئة .

وفي الدهاق أقوال ذكرها الرازي في تفسيره " الأول : وهو قول أكثر أهل اللغة ... دهاقا أي ممتلئة، دعا ابن عباس غلاما له فقال: اسقنا دهاقا، فجاء الغلام بها ملأي، فقال ابن عباس ها هو الدهاق ... القول الثاني: دهاقا أي متتابعة قال الواحدي: وأصل هذا القول من قول العرب أدهقت الحجارة إدهاقا وهو شدة تلازمها ودخول بعضها في بعض ... والمتتابع كالمتداخل... القول الثالث: يروى عن عكرمة أنه قال: دهاقا أي صافية ... ويجوز أن تكون جمع داهق، وهو خشبتان يعصر بهما، والمراد بالكأس الخمر، قال الضحاك: كل كأس في القرآن فهو الخمر، والتقدير : وخمرا ذات دهاق أي عصرت وصفيت بالدهاق ."[1]

وعلى الرأي الأول تكون (دهاقا) وصف للكأس ذاتها على أنها ممتلئة بالخمر فيكون التعبير بالكأس على حقيقته وتكون الكأس كناية عن موصوف هو الخمر؛ لأنها المقصود في كل موضع يذكر فيه الكأس.

وعلى الرأيين الثاني والثالث بأن (دهاقا) معناها متتابعة أو بمعنى صافية، يكون الوصف للخمر، فيكون ذكر الكأس مجاز مرسل لعلاقة المحلية حيث ذكر المحل (الكأس) وأريد الحال فيه (الخمر)، وأغلب المفسرين على الرأي الأول يقول الطبري: "وكأسا ملأي متتابعة على شاربيها بكثرة وامتلاء."[2]، وورد في مهذب تفسير الجلالين الجمع بين

(١) مفاتيح الغيب للرازي: جـ ٣١ / ٢١ .

(٢) جامع البيان للطبري: جـ ٧/ ٤٤٦ .

الأمرين حيث ورد فيه المعنى خمرا مالئة محالها.[١]

والأصل الدهق:" شدة الضغط ومتابعة الشد، ودهق الماء وأدهقه: أفرغه إفراغا شديدا... وأدهق الكأس شد ملأها، وكأس دهاق:مترعة ممتلئة ... قال خداش بن زهير:[٢]

أتانا عامر يرجو قرانا فأترعنا له كأسا دهاقا

وقيل معنى قوله دهاقا متتابعة على شاربيها من الدهق الذي هو متابعة الشد، والأول أعرف."[٣]

ووصف الكأس بالدهاق " من إطلاق المصدر على المفعول فإن الكأس مدهقة لا داهقة " وصفت به الكأس للمبالغة في امتلائها "[٤] والغرض من وراء ذلك بيان مدى إمعانهم في النعيم الذي أعد لهم فهو " لما ذكر النساء ذكر الملائم لعشرتهن فقال: (كأسا) أي من الخمر التي لا مثيل لها في لذة الذوق ظاهرا وباطنا، وكمال السرور وإنعاش القوى، ولما كانت العادة جارية بأن الشراب الجيد يكون قليلا، دل على كثرته دليلا على جودته بقوله (دهاقا) أي ممتلئة.[٥]

(١) تهذيب تفسير الجلالين :٥٨٣.

(٢) شعر خداش بن زهير : ٨٧ .

(٣) لسان العرب مادة : دهق .

(٤) حدائق الروح والريحان: جـ ٣١ / ٣٧ .

(٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: جـ ٢١ / ٢١٠.

المبحث الرابع عشر

المائدة

المائدة: الطعام نفسه، وإن لم يكن هناك خوان، مشتق من ذلك، وقيل هي نفس الخوان، قال الفارسي لا تسمى مائدة حتى يكون عليها طعام وإلا فهي خوان.

والمائدة في المعنى مفعولة ولفظها فاعلة، وهي مثل عيشة راضية بمعنى مرضية."(١)

والخوان هو" الذي يؤكل عليه معرب، والجمع أخونة في القليل، وفي الكثير خُون... والخوان: المائدة معربة ...وأخاوين جمع خوان وهو ما يوضع عليه الطعام عند الأكل."(٢)

ولم تأت لفظة المائدة في القرآن الكريم إلا في آيتين من سورة المائدة وهما قول الله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الآية :١١٢]

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [الآية :١١٤]

التحليل البلاغي:

بالنظر إلى المعنى اللغوي للفظة المائدة نجدها تعني الطعام نفسه أو الخوان الذي يوضع عليه الطعام، لكنه لا يسمى مائدة إلا إذا كان عليه طعام، إذن محل الطعام والطعام نفسه مقرونان في التعبير بلفظة المائدة، فإذا ما فسرت المائدة في الآيتين الكريمتين بمعنى الطعام، فيكون التعبير بها حقيقي، حيث المقصود في دعائهم إنزال الطعام ذاته بدليل قولهم :"قَالُوا

(١) لسان العرب: مادة ميد .

(٢) السابق مادة: خون.

نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا"[المائدة آية : ١١٣] إلا أنه يلزم من ذلك أن يأتون بأخونة يجمعون فيها الطعام المنزل ولا وجه لتساقط الطعام من السماء دون أن يكون مجموعافي شيء يحمله.

وعلى التفسير الآخر أن التعبير بالمائدة يعني محل وضع الطعام، حيث يكون عليه الطعام المنزل، فتكون لفظة المائدة من المجاز المرسل لعلاقة المحلية، حيث ذكر المحل (المائدة) وأريد الحال فيه (الطعام) أو لعلاقة المجاورة، حيث لا تذكر المائدة إلا وعليها الطعام، وقال بهذا الوجه الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، حيث قال: " ولعله من المجاز المرسل بعلاقة المحل."[١] كما أشار إليه القرطبي بقوله: " ويسمى الطعام أيضا مائدة تجوزا؛ لأنه يؤكل على المائدة كقولهم للمطر سماء."[٢]

وذكر الراغب الأصفهاني وجها آخر حيث قال: " قيل استدعوا طعاما، وقيل استدعوا علما، وسماه مائدة من حيث إن العلم غذاء القلوب كما أن الطعام غذاء الأبدان."[٣] فقد جعله من باب الاستعارة حيث شُبه بالطعام ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية، لكن هذا الوجه بعيد ولم يرد في الآيات ما يشير إليه، علاوة على أنه لم يقل به غيره، " وإنما سأل الحواريون كون المائدة منزلة من السماء؛ لأنهم رغبوا أن تكون خارقة للعادة فلا تكون مما صنع في العالم الأرضي فتعين أن تكون من عالم علوي."[٤]

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ ٧ / ١٠٦ .

(٢) تفسير القرطبي جـ ٦ / ٣٨٣ .

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: مادة ميد .

(٤) التحرير والتنوير جـ ٧ / ١٠٦ .

المبحث الخامس عشر

الماعون

الماعون: "الطاعة، يقال: ضرب الناقة حتى أعطت ماعونها وانقادت ... روي عن علي رضوان الله عليه أنه قال: الماعون الزكاة.

والمعن والماعون: المعروف كله والماعون: أسقاط البيت كالدلو والفأس والقدر والقصعة؛ لأنه لا يُكرِثُ معطيه ولا يُعنِّي كاسبه ... وقيل هو اسم جامع لمنافع البيت كالقدر والفأس وغيرهما مما جرت العادة بعاريته، قال الأعشى:(١)

بأجود منه بماعونه إذا ما سماؤهم لم تغم

والماعون في الجاهلية: المنفعة والعطية، وفي الإسلام الطاعة والزكاة والصدقة الواجبة، قال أبو حنيفة: المعن والماعون كل ما انتفعت به."(٢)

ولم تأت لفظة الماعون في القرآن الكريم إلا في آية واحدة من سورة الماعون وهي قول الله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [آية : ٧]

المعنى العام:

أي عذاب شديد لمن يؤدي الصلاة بجسمه ولسانه من غير أن يكون لها أثر في نفسه، لأنه غافل عما يقول اللسان وتفعله الجوارح، وهم بالإضافة إلى ذلك يراءون الناس بأعمالهم، ليخدعوهم فيمدحوهم وهم ليسوا كذلك.

---

(١) ديوان الأعشى : ٣٩ .

(٢) لسان العرب: مادة معن.

ويمنعون الماعون أي يمنعون الناس محقرات الأموال وقلائلها مما يتعاطاه الناس ويتعاورونه ويعتادون التسامح فيه من أثاث البيت وغيره كالدلو والقدر والإبريق والفأس والسكين والإبرة والخيط والحمير وبقايا الطعام والماء والملح والنار وغيرها من الأشياء التافهة ... ما لم تجر العادة بمنعه مما يسأله الغني والفقير وينسب منعه إلى لؤم الطبع وسوء الخلق."[1] أي يمنعون الناس منافع ما عندهم من الأمور اليسيرة التي لاقيمة لها ولا يترتب عليها خسارة بإعارتها للغير.

التحليل البلاغي:

يفهم من المعنى اللغوي ومن أقوال المفسرين في لفظة الماعون أن معناها أقل شيء يمكن أن يفيد الشخص غيره بها ولا يكلفه شيئا، وتعددت الأقوال في تفسير المقصود بها حتى جمعها القرطبي في تفسيره، وذكر أنها على اثنتي عشر وجها منها ما نعرفه الآن بأن الماعون يعني القدر من أدوات الطعام بالإضافة إلى غيره من أدوات المعيشة مما ذكره المفسرون.

والمقصود بالماعون حقيقته إلا أن المعنى فيها كنائي، حيث التعبير كناية عن شدة البخل الحاصل من هؤلاء المذمومين في الآية، فهم شح بالشيء القليل الحقير في القيمة مما لا خسارة على صاحبه في إعارته وإعطائه فما بالك بما هو أكثر من ذلك، وبهذا المعنى يكون هناك من المناسبة والملاءمة بين الأوصاف السابقة من بداية السورة إلى نهايتها.

فالذي يكذب بالدين شحيح بالطاعة للدين الصحيح، وهو الذي يدع اليتيم فهو شحيح بالحنو على اليتيم وإطعامه، حيث قيل إنها وردت في " أبي سفيان، وكان ينحر في كل

(١) ينظر حدائق الروح والريحان جـ ٣٢ / ٣٦٧ .

أسبوع جزورا، فطلب منه يتيم فقرعه بعصاه. "[1]

ولا يحض على طعام المسكين أي "لا يأمر به من أجل بخله وتكذيبه. "[2] بل يحض على الشح به، فشحه ملازم له حتى أنه ليدعو إلى الشح ويحض عليه، بل كانوا يبخلون ويعتذرون لأنفسهم ويقولون: " أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ "[يس : ٤٧][3] وكذا المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، فهم شحيحون بإدائها على الوجه المطلوب وفيهم شح في مشاعرهم ونفوسهم، ومن دواعي شحهم أنهم لا يفعلون الشيء إلا رياء ليمدحهم الناس، ولولا طلبهم للرياء ما فعلوا، فناسب كل هذا أن يكني عنهم بمنتهى الشح في منعهم الماعون الذي هو من حقائر الأشياء التي يتعاطاها الناس فيما بينهم وجرت العادة بألا يمنعونها من بعضهم البعض حتى إنه ليطلبها الفقير والغني، مما يدل على لؤم الطبع وسوء الخلق وشدة الحرص فلا يفيدون أحدا حتى بما حقر عندهم .

ومما قيل في معنى الماعون: أنها بمعنى الزكاة، وقيل يعني المال بلسان قريش، وذكر الزجاج وأبو عبيدة والمبرد إن الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة حتى الفأس والقدر والدلو والقداحة، والماعون في الإسلام الطاعة والزكاة، وأنشدوا قول الراعي:[4]

(١) ينظر القرطبي جـ ٢٠ / ٢١٠ .

(٢) ينظر السابق جـ ٢٠ / ٢١٠ .

(٣) ينظر السابق جـ ٢٠ / ٢١٠ .

(٤) ديوان الراعي :٢٢٩ . وصحيح البيتين الأولين في الديوان :

أولي أمر الله إنـــا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلا تنزيـــلا

أخليفـــة الـرحمـــن إنـــا معـشر حنفـاء نسجد بكرة وأصيـلا

عـــرب نـرى الله مـــن أموالـنـــا حـــق الزكـــاة منزلا تنزيـــلا

قـــوم عـــلى الإســـلام لما يمـــنعـــوا ماعونهـم ويضيعوا التهليلا[1]

يعني الزكاة، إذ أصل الماعون من " المعن وهو الشيء القليل فسميت الزكاة ماعونا؛ قليل من كثير؛ لأنها ربع أو عشر. "[2]

وعلى هذا فتكون لفظة الماعون مستعملة في غير معناها الحقيقي حيث شبهت الزكاة بالماعون بجامع جمع الشيء النافع، ثم حذف المشبه (الزكاة) وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل في جنسه، ثم استعير الماعون للزكاة على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

والمعنى: " ويمنعون الزكاة كما دل عليه ذكره عقيب الصلاة أو ما يتعاوره عادة، فإن عدم المبالاة باليتيم والمسكين، حيث كان من عدم الاعتقاد بالجزاء موجب للذم والتوبيخ، فعدم المبالاة بالصلاة التي هي عماد الدين والرياء الذي هو شعبة من الكفر، ومنع الزكاة التي هي قنطرة الإسلام، وسوء المعاملة مع الخلق أحق بذلك ولم يُر من المتسمين بالإسلام "[3]

وأورد الفراء في كتابه معاني القرآن : " سمعت بعض العرب يقول : الماعون هو الماء بعينه، و أنشدني فيه :

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج جـ ٥ / ٣٦٨ .

(٢) ينظر حدائق الروح والريحان جـ ٣٢ / ٣٦٨ .

(٣) السابق: جـ ٣٢ / ٣٦٨، ٣٦٩ .

يمج صبيره الماعون صبا والصبير : السحاب. "[1]

وعليه يكون الماعون من المجاز المرسل لعلاقة المحلية حيث ذكر المحل " الماعون " وأراد الحال فيه (الماء)لأن الماء مما يوضع في الماعون، وكان الذم والتوبيخ للذين يمنعون الماء لما عليه من الثواب الكبير على الرغم من رخصه وقلة قيمته، إذا ما قيس بأشياء أخرى يحرص عليها الناس، فقد أورد ابن ماجه عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت: يا رسول الله، ما الذي لا يحل منعه، قال: الماء والنار والملح قلت: هذا الماء فما حال الملح والنار قال: من أعطى ملحا فكأنما تصدق بما يطيب به، ومن أعطى نارا فكأنما تصدق بما يطبخ به، ومن أعطى ماء حيث يوجد فكأنما عتق سبعين نفسا، وإن كان حيث لا يوجد فكأنما أحيا نفسا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا. "[2]

وفي قوله تعالى:" الذين هم " تكرار في الآيتين " كرر ولم يقتصر على مرة واحدة؛ لامتناع عطف الفعل على الاسم، ولم يقل: الذين هم يمنعون؛ لأنه فعل فحسن عطف الفعل على الفعل. "[3]

(١) معاني القرآن :٢٩٥ .

(٢) ينظر المحرر الوجيز لابن عرفة جـ ٤ / ٣٥٠ .

(٣) أسرار التكرار للكرماني : ٢٥٥ .

المبحث السادس عشر

الوعـــاء والأوعيـــة

الوِعاء والإعاء على البدل والوُعاء، كل ذلك: ظرف الشيء، والجمع أوعية، ويقال لصدر الرجل وعاء علمه واعتقاده تشبيها بذلك، ووعى الشيء في الوعاء وأوعاه: جمعه فيه... يقال أوعيت الزاد والمتاع إذا جعلته في الوعاء، قال عبيد بن الأبرص:(١)

الخير يبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد(٢)

وقد ورد لفظ الوعاء والأوعية في موضع واحد من القرآن الكريم في سورة يوسف وهو قوله تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [الآية :٧٦]

المعنى العام:

بعدما حَمَّل يوسف لإخوته البضاعة التي طلبوها وهموا بالرحيل بها، أراد إجراء حيلة السرقة؛ ليأخذ أخاه الصغير منهم فوكل بهم من تفتيش أوعيتهم فبدأ بتفتيش أوعية الأخوة الكبار قبل وعاء الأخ الصغير لنفي التهمة، وتمكين الحيلة، وإبقاء ظهورها حتى بلغ وعاء أخيه الصغير حيث وجدوا صواع الملك المفقود فيه والذي يسمى السقاية أيضا.

التحليل البلاغي:

نجد في هذه الآية الكريمة أن لفظ الوعاء أتى على حقيقته من حيث هو ظرف يجمع فيه الزاد ونحوه ويحيط به؛ ذلك أنهم حملوا الكثير من الحبوب والطعام على بعيرهم، وزاد لهم

(١) ديوان عبيد بن الأبرص :٤٩ .

(٢) لسان العرب: مادة وعى .

يوسف في الكيل كما وعدهم بعد ما أتوا بأخيهم، وهذا ما ورد في قوله تعالى: " فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ [يوسف آية :٧٠] قال المفسرون: " أوفى لهم الكيل، وحمل لـ " بنيامين " بعيرا باسمه كما حمل لهم، وجعل السقاية في رحل أخيه. "[1] فكان لكل منهم كيل يخصه من البُر والحنطة ونحو ذلك فمن الطبعي أن يكون لكل منهم وعاء يضع فيه زاده ويجمع فيه ما كيل له.

وقد جمعت الأوعية في حق الأخوة؛ لأنهم جماعة مستثناة من حيلة ادعاء السرقة، ولأنهم ليسوا أخوة أشقاء ليوسف؛ ولأنهم اشتركوا في إلقاء يوسف في الجب، بينما خص الأخ الصغير بالوعاء المفرد؛ لأنه هو الأخ الشقيق له بدليل الإضافة في قوله تعالى: "وِعَاءِ أَخِيهِ" ولأنه لم يضع فيه مكروها، بل هو في نفس موقف يوسف بالنسبة لأخوته .

وتقدم ذكر الأوعية بالجمع على الوعاء بالمفرد؛ لأنه بدأ بتفتيش جماعة الأخوة أولا قبل تفتيش الأخ الأصغر لضبط الحيلة عليهم لئلا يشكوا في الأمر أنه مدبر ولاستبعادهم من تهمة السرقة، لأنهم ليسوا هم المقصودون.

والفاء في " فبدأ بأوعيتهم " كما هو معلوم تفيد الترتيب والتعقيب وهذا يعني الفورية في البدء بالتفتيش بمجرد أن استنطقهم الحكم على من وجد في رحله، ثم لما كان التفتيش يستوجب أخذ بعض الوقت حتى تنطلي عليهم الحيلة، ولأن أوعيتهم تقتضي أن يكون عددها عشرة؛ لأنهم كما قيل كانوا عشرة أخوة، فتحتاج في تفتيشها وقتا، ولأجل أن يؤخر أخيهم في النهاية جاء العطف بـ (ثم) في قوله تعالى: " ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ " لما تفيده (ثم) من الترتيب والتراخي في المدة المستغرقة .

---

(١) ينظر زاد المسير في علم التفسير :٧٠٨ .

وفي قوله تعالى:" ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ" إظهار في مقام الإضمار، إذ الأصل أن يقال ثم استخرجها منه بالعود عليه بالضمير حيث تقدم ذكر وعاء أخيه قبلها مباشرة بقوله :"فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ " فيكون وعاء أخيه الثانية تكرار مرة ثانية للأولى، للاهتمام بأمر الأخ الصغير وبالخبر المعلق به ولفت الانتباه إلى ما سيحدث معه، أو لإزاله اللبس والغموض أما إظهار كلمة " وعاء" فإنه لو قال :" ثم استخرجها منه " لأوهم عود الضمير على الأخ، فيصير المعنى كأن الأخ كان مباشرا بطلب خروج الوعاء، وليس الأمر كذلك؛ لما في المباشرة من الأذى الذي تأباه النفوس الأبية فأعيد بلفظ الظاهر لنفي هذا التوهم."[1] وأما إظهار كلمة "أخيه " فإنه لو جرى على الأصل وقال:" ثم استخرجها من وعائه " لأوهم السياق أن يوسف – عليه السلام – استخرجها من وعائه؛ لأن ضمير الفاعل في "استخرجها " ليوسف والضمير يعود على أقرب مذكور." [2]

(١) ينظر البرهان للزركشي جـ ٣ / ٦٥ ، والإتقان للسيوطي جـ ٢ / ٨٦٥ .

(٢) ينظر السابق والإظهار في مقام الإضمار في القرآن الكريم د عبد الرزاق حسين أحمد : ٤٤ .

الخاتمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين وأله وصحبه الطاهرين، وبعد.

فلم يقف الإعجاز في القرآن الكريم عند صورة واحدة أو أسلوب بعينه بل تعددت صوره وتنوعت أساليب بيانه، وبرز معينا لا ينضب ولا تنتهى أسراره من البلاغة والفصاحة ، مما يدفع إلى التأمل في سمو التعبير القرآني ونظمه ، حيث إن السعة الدلالية التي تحتملها المادة القرآنية لا يمكن لأى فكر أن يحيط بها، فهو بناء قد أحكمت لبناته ونسقت ألفاظه ومعانيه وتراكيبه من لدن حكيم خبير، وكانت أدوات الطعام والشراب أنموذجا لأحد صور هذا الإعجاز إذ يريكها القرآن الكريم تارة مستعملة في معناها الحقيقي لتقرر ثبوت شيء بعينه، وتارة مستعملة في تشبيه أو كناية أو مجاز لغوى أو عقلي؛ ليعكس عليها ظلالا معنوية أخرى تخدم الغرض الذى سيقت من أجله، وجاءت أهم النتائج المستخلصة من هذه الدراسة كالتالي:

- تراوح التعبير عن أدوات الطعام والشراب في القرآن الكريم ما بين حقيقي ومجازي مشتملا على عدة فنون بلاغية أخرى من علمي المعاني والبديع علاوة على علم البيان، مما يعزز بلاغة السياق الذي جاء فيه، فورد فيه التشبيه، والمجاز المرسل، والاستعارة والكناية، والمجاز العقلي، والجناس، وفي سياق بناء الفعل للمجهول، والإيجاز بالحذف والإيجاز بالقصر، والإيهام المقترن بالتفخيم والتشويق، والتنكير، والإطناب بذكر العام والخاص، والإجمال بعد التفصيل، والتكرير ومنه تكرار الحرف لتكرار الفعل نفسه، والفصل والوصل، والخبر والإنشاء، والقسم والمبالغة والتعريض، والتقديم والتأخير، والإظهار في مقام الإضمار، والفرق في التعبير بين استعمال صيغ الجمع والمفرد، والفرق بين الفاء

والعطف بالواو، بالإضافة إلى التناسب والتلاؤم في السياق وبلاغة النظم القرآني.

- وردت بعض أدوات الطعام وكذا أدوات الشراب في القرآن الكريم ذات دلالة مختلفة عما اعتيد استعمالها فيه سواء ورد استعمالها على المعنى الحقيقي أو المجازي، فمن الاستعمال المجازي ورود لفظة (طبق) وهي معروفة أنها من الأدوات التي يقدم فيها الطعام، جاءت في قوله تعالى: " لتركبن طبق عن طبق " بمعنى حالا بعد حال أو منزلة بعد منزلة، وهو معنى مغاير تماما لما هي عليه في الأصل اللغوي.

ومن الاستعمال الحقيقي لفظة (السقاية) فأصلها أداة تستخدم في سقي الماء إلا أنها وردت في موضع الكيل بها كحالة خاصة في سورة يوسف.

- أضفى تعبير القرآن الكريم في استعمال أدوات الطعام والشراب معنى أعمق وفيه جدة وطرافة، وأعطى بعدا أخر خلاف ما تعورف عليه سواء في وصفها أو استعمالها، من ذلك ما ورد في ذكره تعالى للقوارير في وصف نعيم الآخرة " قوارير من فضة قدروها تقديرا" فالمعتاد أن القوارير تكون من زجاج، أما أن تكون من فضة فهو أمر غير مألوف بل غير متصور إلا أن تكون من أحوال الآخرة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وكذا القوارير في سورة النمل في قصة سليمان – عليه السلام – والملكة بلقيس حيث قال تعالى: " صرح ممرد من قوارير " فاتخاذ الصرح من زجاج القوارير مع ثقله وتمليسه أمر لا يستطيع العقل استيعاب وجوده أو حتى تخيله على الصفة التي ورد عليها إلا أن يكون قد تم ذلك بقدرة الله تعالى وتسخيره الجن لسليمان – عليه السلام – بأمور خارقة للعادة لا يسمع عنها إلا في الأساطير.

- غلبت بعض الصور البيانية الواردة على بعضها البعض، حيث جاء التعبير عن طريق

الاستعارة في أكثر المواضع، وتنوعت ما بين تصريحية ومكنية وأصلية وتبعية وتمثيلية، يليها الكناية وبرزت من نوع الكناية عن صفة، يليها المجاز المرسل لعلاقة المحلية، وقل التشبيه عن باقي الصور.

- جدة وطرافة دراسة الأدوات المستخدمة في الطعام والشراب، حيث إن بها من النكات البلاغية واللطائف المعنوية التي تم التوصل إليها من خلال استقراء العديد من التفاسير للإفادة منها في تفسير الآيات الواردة فيها هذه الأدوات، والتعلم من منهج المفسرين في فهم المعاني عن طريق التوظيف البلاغي للنظم القرآني.

والحمد لله أولا وآخرا

المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم.

٢ – الإتقان في علوم القرآن – السيوطي – تحقيق مركز الدراسات القرآنية – مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – ١٤٢٦ هـ.

٣ – أساس البلاغة – الزمخشري – تحقيق محمد باسل – دار الكتب العلمية – بيروت – ط الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٦٨م.

٤ – أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني – قراءة وتعليق محمود شاكر – دار المدني بجدة –١٤١٢هـ – ١٩٩١.

٥ – أسرار التكرار المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن – الكرماني – تحقيق عبد القادر أحمد عطا – دار الفضيلة – بدون تاريخ .

٦ – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – الشنقيطي – مجمع الفقه الإسلامي بجدة – بدون تاريخ.

٧ – الإضمار في مقام الإظهار في القرآن الكريم – د عبد الرزاق حسين أحمد – مجلة الوعي الإسلامي بالكويت – الإصدار الثاني والثلاثون – ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢م.

٨ – الإعجاز والإيجاز – أبو منصور الثعالبي – المطبعة العمومية بمصر – ط الأولى – ١٨٩٧.

٩ – الإيضاح في علوم البلاغة – الخطيب القزويني – تحقيق د عبد القادر حسين – مكتبة الآداب – ١٩٩٦م.

١٠ – البحر المحيط أبي حيان الأندلسي – تحقيق – د عبد الرزاق المهدي – دار إحياء التراث العربي – بيروت – بدون تاريخ.

١١ - البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم – د عبد الفتاح لاشين – دار الفكر العربي – ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

١٢ - البرهان في علوم القرآن – الزركشي – تحقيق أبي الفضل الدمياطي – دار الحديث – القاهرة – ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١٣ - البلاغة العالية – علم المعاني – عبد المتعال الصعيدي – مراجعة د عبد القادر حسين – مكتبة الآداب – ط الثانية – ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١٤ - تفسير أبي السعود – لأبي السعود – تحقيق عبد القادر أحمد عطا- السعادة – بدون تاريخ

١٥ - تفسير البغوي- تحقيق محمد عبد الله النمر ، عثمان جمعة ضميرية ، سليمان الحرش – دار طيبة -١٤٠٩هـ

١٦ - تفسير البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل – ناصر الدين البيضاوي – تقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي- دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط الأولى – بدون تاريخ.

١٧ - تفسير التحرير والتنوير – محمد الطاهر بن عاشور – الدار التونسية للنشر – ١٨٨٩م.

١٨ – تفسير الجلالين – جلال الدين المحلي ،وجلال الدين السيوطي – تقديم الشيخ عبد القادر الأرناؤوط – دار ابن كثير – ١٩٧٩.

١٩ - تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن – محمد الأمين الشافعي – مراجعة هاشم محمد علي – دار طوق النجاة – مكة المكرمة – ط الأولى -١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٢٠- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معالم التنزيل – الخازن – مكتبة المتنبي – بدون تاريخ.

٢١- تفسير السراج المنير – الخطيب الشربيني – بولاق – ١٢٩٩هـ.

٢٢- تفسير الطبري – تحقيق بشار عواد معروف ، عصام فارس الحرستاني، مؤسسة الرسالة – بيروت – ط الأولى ١٤٥١ هـ - ١٩٩٤م .

٢٣- تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب – دار الفكر – بيروت لبنان – ط الأولى- ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م .

٢٤- تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل – محمد جمال الدين القاسمي – علق عليه محمد فؤاد عب الباقي – البابي الحلبي – ط الأولى ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

٢٥- تفسير القرآن – السمعاني – تحقيق أبي تميم ياسر إبراهيم – دار الوطن -١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

٢٦- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – عبد الرحمن السعدي – تحقيق سعد بن فواز الصميل – دار ابن الجوزي – ط الأولى – ١٤٢٢هـ .

٢٧- الجامع لأحكام القرآن – القرطبي – دار الكتب المصرية – ط ٢ – ١٣٥٣هـ - ١٩٣٥م.

٢٨- الجني الداني في حروف المعاني – الحسن المرادي – تحقيق فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط ١ ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٢٩- جواهر البلاغة – السيد أحمد الهاشمي – تحقيق يوسف الصميلي- المكتبة العصرية – بيروت- ط الأولى ١٩٩٩م.

٣٠- حروف المعاني بين الأصالة والمعاصرة -حسن عباس -اتحاد الكتاب العرب –

دمشق – ٢٠٠٠م.

٣١- الخصائص – ابن جني – تحقيق محمد علي النجار –المكتبة العلمية –١٣٧١هـ – ١٩٥٢م.

٣٢- دراسات بلاغية في القرآن والحديث – د عبد الفتاح لاشين – دار الطباعة المحمدية – ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

٣٣- دفاع عن البلاغة – أحمد حسن الزيات –عالم الكتب – ط الثانية – ١٩٦٧م.

٣٤- دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني – تحيق محمود محمد شاكر – الخانجي بالقاهرة – ط ٥ – ٢٠٠٤م.

٣٥- ديوان أبي ذؤيب الهذلي – تحقيق أحمد جمال الشال – مركز الدراسات والبحوث الإسلامية ببورسعيد –١٤٣٤هـ – ٢٠١٣ م.

٣٦- ديوان الأخطل – شرح وتصنيف مهدي محمد ناصر – دار الكتب العلمية – بيروت – ط ٢ – ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

٣٧- ديوان الأعشى الكبير – شرح وتعليق د محمد محمد حسين – مكتبة الآداب – بدون تاريخ .

٣٨- ديوان الراعي النميري – جمع وتحقيق راينهرتفابيرت– المعهد الألماني للأبحاث الشرقية– بيروت – ١٩٨٠م.

٣٩- ديوان عبيد بن الأبرص – تحقيق د حسين نصار – مكتبة الثقافة الدينية – ٢٠٠٤م.

٤٠ – ديوان عدي بن زيد العبادي – تحقيق محمد جبار المعيبد– دار الجمهورية للنشر – بغداد – ١٩٦٥م.

٤١ – ديوان المسيب بن علس – جمع وتحقيق د عبد الرحمن محمد الوصيفي– مكتبة الآداب

– ط الأولى – ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.

٤٢- رصف المباني في شرح حروف المعاني – تحقيق أحمد محمد الخراط – مجمع اللغة العربية – دمشق – ١٣٩٤هـ.

٤٣ – رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز –الرسعني– تحقيق د عبد الملك بن عبد الله بن دهيش– مكتبة الأسدي – مكة المكرمة – ١٤٩٢هـ – ٢٠٠٨م.

٤٤ – زاد المسير في علم التفسير – ابن الجوزي – دار ابن حزم – بيروت – لبنان – ط ١ – ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

٤٥ – سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن – د عودة الله منيع القيسي – مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان – ط الأولى – ١٤١٦ هـ –١٩٩٦م.

٤٦ – شذا العرف في فن الصرف –أحمد الحملاوي– دار الكيان – الرياض – بدون تاريخ.

٤٧ – شرح ديوان أمية بن أبي الصلت – تقديم وتعليق سيف الدين الكاتب ، أحمد عصام الكاتب – مكتبة الحياة – بيروت – ١٩٨٠م.

٤٨- شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري – تحقيق عبد الرحمن البرقوقي– المكتبة التجارية الكبرى – ١٣٤٧هـ – ١٩٢٩م.

٤٩ – شرح ديوان الحماسة لأبي تمام – تأليف أبي زكريا التبريزي – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – المكتبة التجارية بمصر – بدون تاريخ.

٥٠–شرح ديوان علقمة الفحل – تحقيق السيد أحمد صقر – المكتبة المحمودية التجارية بمصر – ط الأولى – ١٣٥٣هـ – ١٩٥٣م .

٥١- شعر خداش بن زهير – تحقيق يحي الجبوري – مجمع اللغة العربية بدمشق – ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

٥٢- الطراز- يحي بن حمزة العلوي – تحقيق د عبد الحميد هنداوي – المكتبة العصرية – بيوت – ١٣٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

٥٣- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح – بهاء الدين السبكي –ضمن شروح التلخيص – ط دار الكتب العلمية – لبنان – بدون تاريخ .

٥٤- العمدة – ابن رشيق – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – دار الجيل – ط ٥ – ١٤٠١هـ- ١٩٨١

٥٥- عمدة التفاسير – ابن كثير – تحقيق أحمد شاكر – دار الوفاء – ط الثانية – ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م .

٥٦- القاموس المحيط –الفيروزآبادي– تحيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة – مؤسسة الرسالة – ط الثامنة –١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

٥٧- الكشاف – الزمخشري – اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه خليل مأمون شيحة – دار المعرفة – بيروت – لبنان – ط الثالثة – ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

٥٨- كشف المعاني في المتشابه من المثاني – ابن جماعة – تحقيق د عبد الجواد خلف – دار الوفاء – ط الأولى – ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٥٩- اللباب في علوم الكتاب – ابن عادل الدمشقي – تحقيق وتعليق – عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط الأولى- ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

٦٠- لسان العرب – ابن منظور – دار المعارف– بدون تاريخ.

٦١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز –ابن عطية الأندلسي–دار ابن حزم – ١٤٢٣هـ .

٦٢- المثل السائر – ابن الأثير – تحقيق د أحمد الحوفي ، د بدوي طبانة– دار نهضة مصر– بدون تاريخ.

٦٣- المعجم الوجيز– مجمع اللغة العربية – الهيئة العامة للشئون الأميرية – ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.

٦٤- المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية– مكتبة الشروق الدولية – ط الرابعة – ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

٦٥- معاني القرآن – الفراء – عالم الكتب – بيروت– ط الثالثة –١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

٦٦- معاني القرآن وإعرابه – الزجاج – شرح وتعليق د عبد الجليل شلبي – عالم الكتب – بيروت– ط الأولى – ١٤٠٨هـ– ١٩٨٨م.

٦٧- مفتاح العلوم –السكاكي–تحقيق د عبد الحميد هنداوي– دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط الأولى– ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م.

٦٨- مفردات ألفاظ القرآن – الراغب الأصفهاني – تحقيق صفوان عدنان داوودي – دار القلم – دمشق – ط الرابعة – ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

٦٩- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل – ابن الزبير الثقفي – تحقيق سعيد الفلاح – دار الغرب الإسلامي – ط الثانية – ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

٧٠- مهذب تفسير الجلالين – سعد بن عبد الرحمن الحصين –دار الرسالة – ط الأولى ١٣٢٤هـ – ٢٠٠٢م.

٧١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – برهان الدين البقاعي – دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة – ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.